فاطمة الزهراء

أحب البنات
فى دوامة الاعصار
الهجرة
البيت الجديد
سحابة صيف
محنة ثقيلة
حلم هنىء
يقظة مروعة
التئام الشمل !
بدء تاريخ !

كانت رابعة البنات فى تلك البيئة التى عرفناها مفتونة بالبنين ، لكنها مع ذلك دخلت التاريخ الاسلامى كما لم يدخله أحد قط بعد أبيها النبى ، وتركت فيه من خطير الآثار ما جاوز كل تصور واحتمال ، يوم استقبلها البيت المحمدى وليدة ، قبل المبعث بخمس سنوات

ولقد شاء الله أن يقترن مولدها بالحادث الجليل الذى ارتضت فيه قريش « محمدا » حكما فيما اشتجر بينها من خلاف على وضع الحجر الاسود ، بعد تجديد بناء الكعبة المكرمة ، فاستبشر أبواها بمولدها واحتفلا بها احتفالا لم تألفه « مكة » فى مولد أنثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهن ولد . وأمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها ، وبخاصة كبراهن « زينب » التى كانت لها بمثابة أم صغيرة

حتى تزوجت « زينب » من ابن خالتها أبى العاص بن الربيع ، ومن بعدها تزوجت « رقية وأم كلثوم » من ابنى أبى لهب ، فعز على فاطمة أن تفارقها أخواتها واحدة فى اثر أخرى ، وأعياها ـ فى طفولتها الباكرة ـ أن تدرك حكمة هذا الزواج الذى يفصل بين البنت وأبويها ، وبين الاخت وأختها ، وشغلتها هذه الخاطرة أياما وليالى ذات عدد ، حتى تركت أثرا عميقا فى مشاعرها البكر وقلبها الغض ، وكان للظروف التى طرأت على الاسرة حينذاك ، يد فى تقوية ذلك الاثر ، فلقد شغل الاب بتأملاته التى انتزعته من دنيا الناس ومضت

به الى عزلة عابدة متأملة ، وشغلت الام بزوجها الحبيب تحنو عليه ما أقام معها وترسل قلبها فى أثره اذا غاب ، وشغلت الاخوات الثلاث بحياتهن الزوجية الجديدة،وتركت «فاطمة» شبه وحيدة مع خواطرها التى انفردت بها وراحت تؤثرفى وجدانها على مهل

وكانت بحيث تجد فى ابن العم ، على بن أبى طالب ـ ذاك الذى اختاره أبوها فضمه اليه واتخذه ولدا ـ أخا وصاحبا،فما كان يكبرها بأكثر من أربع سنين ، لولا أنها استحيت أن تفضى اليه بهمومها التى تدور حول الزواج ، ولو حاولت أن تفعل لما طاوعها لسانها

ثم كان الحادث الاجل الذى هز الجزيرة هزا ، فانتزع فاطمة من شواغلها الخاصة وأيقظها فى عنف من أحلام طفولتها ، وألقى بها فى دوامة الاحداث الهائلة التى أعقبت المبعث

ووجدت نفسها ـ ولما تتجاوز الخامسة من عمرها ـ تواجه الصدمة العنيفة،وتقف فى مهب الاعصار المارد الذى أثارته الوثنية العتيقة فى وجه الدين الجديد

لكنها لم تأس قط على مافاتها من مرح الصبا ولهو الحداثة ، ولا عز عليها أن تتخلى هكذا سريعا عما كانت تنعم به من راحة وخلو بال ، بل حلت تمائم صباها فى شجاعة ، وهجرت ملاعب أترابها ولداتها فى غير تردد ، واستقبلت الحياة الجديدة وهى تدرك على صغر السن ، معنى بنوتها للنبى الذى اصطفاه الله رسولا ، وتعى فداحة العبء الذى يجب عليها أن تحمله ، لتكون جديرة بمكانها من البطل

الذي يلقى قريشا مجتمعة ، أعزل الا من ايمانه بالحق ، وحيدا الا من فئة قليلة مضطهدة

ولم تعد «فاطمة» تشعر بالوحدة التي كانت فيها قبل المبعث ، فلقد ربط الاسلام بينها وبين أبيها النبي ، ووالدتها أم المؤمنين ، وأخواتها المسلمات ، برابطة أقوى من النسب وأغلى من الدم وأقرب من الرحم ، ونسي كل فرد في البيت المحمدي شواغله الخاصة ، منذ تلاقوا جميعا حول دين واحد ، لايدينون بغيره ، ورب أحد ، يجثون له سجدا ، لايشركون به الها آخر ولا يعبدون ربا سواه

ويسرها أن « علي بن أبي طالب» لم يتردد في الايمان بأبيها الرسول ، اذ كان بمثابة أخ لها عزيز ، ولا يهون عليها أن يختلف بهما الدين فتحظى هي بنعمة الاسلام دونه ، ويترك هو مكانه في بيت سيد البشر ، ليلحق بالعصبة الكافرة التي باءت بغضب من الله

وودت لو اسلم شيخ الهاشميين «ابو طالب» فانه لكما قال ابوها الرسول : « وانت اي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته الى الهدى ، وأحق من أجابني اليه وأعانني عليه »

وودت لو أسلم شيخ الهاشميين «أبو طالب» فانه لكما قال زوج شقيقتها العزيزة زينب : بل ودت لو أسلم بنو هاشم جميعا ، فهم آل أبيها وعشيرته الاقربون ، يعز عليه فراقهم ، ويشق عليه حربهم وعداوتهم ، لكن الله أراد أن يمتحن آل النبي ويصهرهم في بوتقة الآلام ، وشاء تعالى ـ جلت مشيئته ـ أن يضرب رسوله المصطفى المثل الاعلى في قوة العقيدة وصدق الايمان وجلال التضحية

كما آثر ـ سبحانه وتعالى ـ فاطمة بنت محمد بالحظ

الاوفى من الالم العبقرى ، فكتب لها ان تشهد الحرب المقدسة وتصلى نارها منذ طفولتها الباكرة ، وتعيش دون اخواتها جميعا ، حتى يجود ابوها البطل بأنفاسه ، ويلحق بالرفيق الاعلى

وكانت لذلك كله اهلا

وهذه هى ، قد هجـــرت ملاعب الصبا وانتبذت من صواحبها مكانا قريبا من ابيها فى قلب الميدان ، وكان صغر سنها يتيح لها ان تخرج من البيت وتتبع اباها اذ يسعى كل يوم الى اندية قريش ومحافلها ليبشر بدعوته ، ويلقى فى سبيلها ما يلقى من كيد الطغاة واذى السفهاء

كانت هناك ، قريبا منه ، يوم اقبل يمشى الى الكعبة حتى استلم الركن ، فما لمحه المشركون حتى وثبوا اليه وثبـــة رجل واحد ، واحاطوا به يقولون : انت الذى تقول كذا وكذا ؟ ـ وعـــدوا ما قال من شتم آبائهـــم وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم

فيقول الرسول : نعم ، انا الذى يقول ذلك

وامسكت « فاطمة » انفاسها وهى ترى رجلا منهم يأخذ بمجمع رداء ابيها ، وشل الذعر حركتها فوقفت حيث هى ، وقام ابو بكر دون الرسول وهو يقول باكيا :

« اتقتلون رجلا ان يقول : ربى الله ؟! »

فالتفتوا اليه وشرر الغضب يتطاير من عيونهم ، فجذبوه بلحيته ، ثم لم يدعوه الا وقد صدعوا راسه !

وغادر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ البيت الحرام ، ومشى فى الطريق ، وابنته تتبعه عن كثب ، فلم يلقه احد من الناس ؛ لا حر ولا عبد ، الا كذبه وآذاه ، حتى بلغ بيته

فتدثر فى فراشه مقرورا ينتفض من شدة ما أصابه

وكانت هناك ، تقف غير بعيد من ابيها وتحوم بعينيها وقلبها حوله ، اذ هو ساجد فى الحرم ، وحوله ناس من مشركى قريش ، فجاء « عقبة بن ابى معيط » بسلى جزور ، فقذفه على ظهره ، فلم يرفع ـ صلى الله عليه وسلم ـ راسه حتى تقدمت ابنته فاطمة فأخذت السلى ودعت على من صنع ذلك ، واذ ذاك رفع النبى راسه وقال :

« اللهم عليك الملأ من قريش ! اللهم عليك ابا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وعقبة بن ابى معيط وابى بن خلف » ـ البخارى ٢/١٤٤

فخشع المشركون لدعائه ، وغضوا بأبصارهم حتى انتهى من صلاته وانصرف الى بيته ، تصحبه ابنته فاطمة

ولو نظرت ـ رضى الله عنها ـ بظهر الغيب ، لرات هؤلاء الملأ الذين دعت ودعا عليهم ابوها الرسول ، صرعى مجندلين حول ماء بدر ، بعد سنوات معدودات !

وكانت هناك ، يوم خرج ابوها النبى الى قريش وقد نزل عليه قوله تعالى :

« وانذر عشيرتك الاقربين » فجعل ينادى :

« يا معشر قريش ، اشتروا انفسكم لا اغنى عنكم من الله شيئا

« يا بنى عبد مناف ، لا اغنى عنكم من الله شيئا

« يا عباس بن عبد المطلب ، لا اغنى عنك من الله شيئا ، ويا صفية بنت عبد المطلب ، لا اغنى عنك من الله شيئا ويا فاطمة بنت محمد ، سلينى ما شئت من مالى ، لا اغنى عنك من الله شيئا »

وخفق قلب « فاطمة » حنانا وتأثرا ، فهمست تقول :

ـ لبيك يا أحب والد واكرم داع

ثم جمعت نفسها وسارت بين الناس بهيكلها الصغير اللطيف ، مرفوعة الهامة مشرقة الاسارير ، وكأنما ازدهاها ان يختارها ابوها النبى ، من بين اخواتها جميعا ، بل من بين اهل بيته الخاص ، ليؤكد للبشر انه لا يغنى من الله شيئا عن اعز الناس عنده واحبهم اليه وادناهم منه

لقد بدأ بقريش قومه وقبيلته ، ثم ببنى مناف عشيرته الاقربين ، ثم عمه العباس وعمته صفية ، ثم كانت ابنته فاطمة هى آخر من يتخذه الرسول مثلا فى ذلك الموقف الجليل ، فعندها اذن ، ينتهى اقصى ما يبلغه صلى الله عليه وسلم فى العظة والاعتبار ، واذا كان محمد لا يغنى عن بنته فاطمة من الله شيئا ، فهل يطمع غيرها ـ كائنا من كان فى ان يغنى عنه أحد من الله شيئا !؟

وليست هـــذه هى المرة الوحيـــدة التى يضرب النبى فيها المثل بابنته فاطمة تأكيدا لما يريد نشره فى امته من الحق ، فلقد حدثوا ان امرأة من قريش سرقت بعد أن اسلمت ، وبلغ الرسول امرها فاشفقت قريش ان تقطع يدها ، فاستشفعوا لها عند الرسول حتى جاءوا اسامة ابن زيد ليشفع فيها وكان الرسول يشفعه ، فلما فعل ، قال صلى الله عليه وسلم :

« لا تكلمنى يا اسامة ، فان الحدود اذا انتهت الى فليس لها مترك ، ولو كانت بنت محمد فاطمة لقطعت يدها »

ـ الاصابة ١٦٠/٨

ولم يقل الرسول : « لو كانت بنت محمد » على الاطلاق

والتعميم ؛ بل ذكر « فاطمة » وهى من عرفت قريش مكانتها الاثيرة عند ابيها الرسول ، ولقد سمع صلى الله عليه وسلم يقول :

« خير نساء العالمين اربع : مريم وآسية وخديجة وفاطمة »

وسمع كذلك يقول لها : « ان الله ليرضى لرضاك ويغضب لغضبك »

وعن ابن جريج : « قال لى غير واحد : كانت فاطمة اصغر بنات النبى صلى الله عليه وسلم واحبهن اليه »

وهذه المرويات تلفتنا الى ما سبق ان اشرنا اليه من موقف متعصبى المستشرقين فى اتهام ما يملأ كتب السيرة والحديث من حب النبى لابنته فاطمة ، والزعم بانها مرويات صنعت بأخرة بعد ما تطورت فكرة الشيعة تطورها السياسى والدينى ذا الاثر البالغ فى التاريخ الاسلامى كله

وفى ذلك يقول « لامنس » :

« ان المؤرخين المسلمين تناسوا فاطمة فلم يحفلوا بها أول الامر ، حتى اذا ظهرت فكرة التشيع فى الاسلام ، عادوا يطيلون الحديث عنها ، واخذت شهرتها تذيع وتنتشر على حين ظلت اخواتها وليس لهن ذكر ولا عنهن حديث »

ويرد أحد الكتاب المسلمين ـ الاستاذ عمر أبو النصر ـ على هذا الزعم قائلا :

« فأما عدم ذكر مؤرخى السيرة لفاطمة وغير فاطمة من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرده ان مؤرخى السيرة انما كانوا يؤرخون للنبوة والاسلام ، ولم تكن النبوة والاسلام معلقين ببنات الرسول متصلين بهن ، خصوصا وانهن لم يخضن حربا ولا اندفعن فى معركة ولا كان لهن

من الشأن فى سياسة الرسول وشريعته ما يدفع المؤرخ الى ذكرهن والتبسط فى تاريخهن . ومن البداهة والحالة هذه الا يذكر المؤرخون من اخبارهن الا ما كان له كبير شأن او عظيم اثر ــ ص ٦٠ من كتاب فاطمة بنت محمد »

وهو رد لا ينفى زعم « لامنس » ، بل لعله اقرب الى ان يقرره ويؤيده . وكان الاستاذ ابو النصر مرجوا عندنا لان يدحض الفرية بما فى كتب السيرة والحديث عن فاطمة بصفة خاصة ، وهذا الذى جئنا ونجىء به من اخبارها فى حياة ابيها النبى ومكانتها لديه ، لم نأت به من عندنا ، ولا نقلناه عن مصادر متأخرة قد تظن بها الظنون وتحمل على انها من مخترعات الشيعة او مختلقات الرواة ، بعد ان دخلت الزهراء فى تاريخ الاسلام وشارك اسمها فى سيره واتجاهه اعنف مشاركة ، كلا وانما كان مرجعنا الاول هو ابن اسحق شيخ كتاب السيرة ، والطبرى عميد مؤرخى الاسلام المتقدمين وكتب الحديث الستة الامهات . ولا اذكر انى سقت هنا خبرا واحدا غير مأخوذ من هذه الاصول

وليس يغيب عنى ما قيـــل فى حاجة هذه المراجع الى التحرير والتوثيق ، ولا انا بجاهلة ما حف بها من ظلال لم تسلم من مثلها الآثار النقلية قط ، لكنى هنا انما ارد على الزعم القائل بان المؤرخين المسلمين وكتاب السيرة ، تناسوا فاطمة كما تناسوا اخواتها ، ثم عادوا فآثروها باكبر العناية والاهتمام بعد ظهور التشيع

فهذه هى كتبهم بين يدى ، اقرأ فيها وانقل منها ما انقل من أخبار « الزهراء » ثم لا ارى بى حاجة الى رد الزعم الأحمق بأكثر مر هذا ، اللهم الا ان أعرض مثلا آخر من

تهافت هذه العصبة الحاقدة من المستشرقين ، حين مر بها حديث الحلية التى روى ان الرسول قال عنها : «لاهبنها احب اهلى الى » ثم دفعها الى حفيدته امامة بنت ابى العاص ابن الربيع . ولقد تلكأ غير واحد من المستشرقين عند هـذا الحديث ، يريدون ان ينقضوا به كل ماتواترت به الاخبار من حب الرسول لابنته فاطمة ، واعشى الحقد بصيرتهم فحملوا خبر الحلية محمل الثقة التى لا يرتفع اليها ظن ولا تجوز عليها ريبة ، وتلقوا اخبار « فاطمة » بالتكذيب والاتهام ، مع ان راويهما واحد !

ولو رشدوا ، لما راوا فى امر الحلية سوى مظهر من مظاهر عطفه صلى الله عليه وسلم على حفيدته الطفلة التى حرمت من امها زينب ، والفتة كريمة من لفتاته التى طالما اسعدت النساء من اهله وعشيرته ، وسنجده صلى الله عليه وسلم فى موقف آخر ، يهدى حلة من استبرق ، فيقول لابن عمه على : « اجعلها خمرا بين الفواطم » فشقها « على » اربعة اخمرة ، احدها لفاطمة بنت محمد ، والثانى لفاطمة بنت اسد بن هاشم ، زوج ابى طالب وام بنيه على وجعفر وعقيـــل ، والثالث لفاطمة بنت الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، والرابع لفاطمة بنت ابى طالب « ام هانىء » ، وفى رواية ، لفاطمة بنت شيبة بن ربيعة زوج عقيل بن ابى طالب

▭

وندع هذا لنسأل : لم استأثرت السيدة فاطمة بهذه المكانة الخاصة عند ابيها صلى الله عليه وسلم ؟

وهو سؤال يعرض دائما لكل من يكتب عن الزهراء ،

اما متعصبو المستشرقين فاراحوا انفسهم كما رأينـــا بجواب سهل قريب ، هو أن ما روى عن حب محمد لفاطمة انما اخترعته الشيعة بعد وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعشرات السنين وما هذا بمستغرب من المستشرقين فهكذا يلتوى تاريخ الاســـلام فى ايديهم ويصطبغ بصـبغة من التعصب لا نلومهم عليها وهم بشر لا يبراون ـ ولا نحن نبرأ ـ من ضعف وهوى ، وان كنا فى الوقت نفسه نأسف لما ضاع ويضيع على الانسانية من جهود هؤلاء العلمـــاء الذين نقدر ما اتيح لهم من صبر على البحث ، ودأب فى الدرس ، كانا جديرين بأن يؤتيا خير الثمر ، لو برئا ممـا شابهما من شوائب هذا الضعف البشرى ، وهيهات !

واحسب انهم لو حاولوا كظم حقدهم ليواجهوا موضوع حب الرسول لابنته « فاطمة » ، لاستطاعوا ان يصلوا الى نتائج اعمق وابعد من هذه التى وصلوا اليها ارتجالا من اقرب الطرق ، وربما اتيح لهم ان يربطوا بين هذا الحب للابنة الرابعة ، وبين ما عرف عن العرب بخاصة من كراهة للاناث ، فهل كان الرسول فى حبه لفاطمة ، متأثرا بما كان يظن من عدم ترحيبه بمولدها بعد ان سبقتها اخوات ثلاث ؟

لستاستبعد هذا ، فمحمد فى ابوته الرحيمةوانسانيته المهذبة ، اهل لان يغمر بحبه هذه الابنة التى شاء لها القدر ان تجىء حيث لا تلقى ترحابا ، واحق بان يحبوها مزيدا من عطفه حتى لا تحس ـ ولو على سبيل الوهم ـ انها غير مرغوب فيها . ونحن الامهات قد بلونا هذا الشعور الغامر بالحنان والرحمة ، حين تولد لنا بنت ثانية اوثالثة ، فكيف اذن يكون موقف الاب الكريم الذى اختير ليبعث

رسولا ؟ مثله بلا ريب من يذود عن طفلته تلك الظلال الكئيبة التى تحيط بمولد البنت الرابعة ، ويحميها من ذلك الاحساس المر الاليم الذى قد يكسر قلبها ويعقد نفسيتها

ولنا ان نقول بعد هذا ان تلك المكانة الخاصة لفاطمة عند ابيها . لم تنقص حبه لاخواتها الثلاث ، ولنا ان نقول كذلك ان حظ مكانة الزهراء من حب ابيها صلى الله عليه وسلم قد ازداد بعد موت هؤلاء الاخوات ،ثم تضاعف بمولد الحسنين ، وانحصار ذريته صلى الله عليه وسلم فى نسل هذه الابنة الوحيدة التى بقيت له !

دخلت « فاطمة » على امها السيدة خديجة ، تحدثها ـ والدنيا لا تسعها من فرط فرحتها وزهوها ـ عما سمعت من دعوة ابيها لقومه أن يشتروا انفسهم ، فان احدا لن يغنى عن احد من الله شيئا ، حتى فاطمة بنت محمد ، لن يغنى عنها ابوها النبى شيئا اذا لم تؤمن

وهى قد آمنت بالله وصدقت بنبيه ورسالته ، وباعت دنياها بالآخرة ، وللآخرة خير وابقى

ومرت الام الطيبة بيدها الرقيقة على جبين ابنتها الطفلة ، وغمغمت فى رفق :

ـ ماذا ستلاقين من بعدى يا صغيرتى ؟ لقد نلت حظى من الدنيا فانا هامة اليوم او غد ، واختاك زينب ورقية قد اطمأن بهما مكانهما فى كنف اكرم زوجين ، ولام كلثوم من سنها وتجربتها ما يغرى بشىء من الطمأنينة عليها ، واما انت يا فاطمة ، فتستقبلين الحياة هكذا فى مستهل الصبا ،

حافلة بالمتاعب منذرة بمزيد من المحن والالام

فردت فاطمة وهى تذكر اباها البطل :

ـ اطمئنى ، فلا بأس على يا اماه ، لتطغ قريش ماشاءت لها وثنيتها ان تطغى ، ولتمضين فى اضطهادها للفئة المسلمة الى اقسى وافدح ما تستطيع ، فلقد طابت نفوسهم لاحتمال هذا العذاب الجليل ، و « فاطمة » أجدر بان تحمل منه ما يكافىء ما نعمت به من بنوتها للنبى ، واستئثارها بالحظ الاوفى من محبته واعزازه

▭

واستجاب الله لها ، فامتحن ايمانها بأقسى ما يمتحن به مثلها ، فقد كان تعلقها بأبيها يجعلها تتعذب لما يلقى من فادح الاذى ، وتروع بالذى يكابده اتباعه من اضطهادمرير ، حتى لتكاد تحس بلسع الصخور الملتهبة التى كانوا يلقون عليها حين يحمر القيظ ، وتتحسس على بدنها اثر السياط التى كانت قريش تلهب بها من تقدر عليه من المستضعفين

وصحبت ابويها الى شعب ابى طالب ، حيث عاشت هنالك بين اسوار الحصار المنهك سنين عددا ، ثم عادت الى مكة بعد انهيار الحصار ، لتشهد بعينها موت امها خديجة ، ثم هجرة ابيها الى يثرب ، بعد ان لم يبق له فى مكة مكان !

وعلى اثره هاجر «على» ابن العم ابى طالب ، وكان قد تمهل ثلاثة ايام فى مكة ، ريثما ادى عن النبى المهاجر ، الودائع التى كانت عنده للناس

وبقيت فاطمة واختها ام كلثوم ، حتى جاء رسول من ابيهما فصحبهما الى يثرب ، واغلقت دار محمد بمكة ، كما

اغلقت دور المسلمين فيها هجرة ، ليس فيها ساكن

ولم تمر رحلتهما بسلام : فما كادتا تودعان ام القرى وينفصل بهما الركب مستقبلا طريق الشمال ، حتى طاردهما اللئام من مشركى قريش ، وباء « الحويرث بن نقيذ بن عبد ابن قصى » ـ وكان ممن يؤذى اباهما النبى بمكة ـ باثم اللحاق بهما حتى نخس بعيرهما فرمى بهما الى الارض

« السيرة ٤/٥٢ »

وكانت فاطمة يومئذ ، ضعيفة نحيلة الجسم ، قدانهكتها الاحداث الجسام التى لقيتها قبل ان تمتلىء شبعا وريا ، وترك الحصار المنهك اثره فى صحتها وان زاد معنويتها قوة على قوة ، فلما نخس بها « الحويرث القرشى » فرمى بها واختها على اديم الصحراء الاوعث ، سارت بقية الطريق متعبة ، الى ان بلغت «المدينة» وما تكادساقاها تنهضان بها ، فلم يبق هناك من لم يلعن الحويرث ، وسوف تمر السنوات وابوها الرسول لا ينسى الفعلة الآثمة ، بل سنراه فى العام الثامن للهجرة ، يذكر الحويرث يوم الفتح الاكبر ، ويسميه مع النفر الذين عهد النبى الى امرائه ان يقتلوهم وان وجدوا تحت استار الكعبة

وكان على بن ابى طالب احق هؤلاء الامراء بقتل الحويرث وقد فعل !

▭

كان الرسول قد شرع فى بناء مسجده ومنزله ، حيث بركت ناقته القصواء عند وصوله الى دار الهجرة ، ونزل صلى الله عليه وسلم ريثما يتم البناء ، فى دار ابى أيوب الانصارى ، وهى الدار التى صارت من بعده الى مولاه

« افلح » فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام بألف دينار ؛ بعد ما خربت وتداعت جدرانها ، فأصلحها وتصدق بها على بعض فقراء المدينة

وكان صلى الله عليه وسلم يشتغل فى بناء مسجده وبيته الجديد ، مما أثار همة المهاجرين والانصار ، فأقبلوا يتنافسون فى العمل وقائلهم يقول :

لئن قعدنا والنبى يعمل
لذاك منا العمل المضل

فيجيبه المسلمون :

لاعيش الا عيش الآخره
اللهم فارحم الانصار والمهاجره !

ورؤى الرسول يومئذ وهو ينفض بيده الكريمة وفرة « عمار بن ياسر » وقد جاء مثقلا بما يحمل من اللبن

وسمع على بن ابى طالب ينشد مرتجزا :

لا يستوى من يعمر المساجدا
يداب فيه قائما وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

فأخذها عنه « عمار » وجعل يرتجز بها حتى تم البناء

ولم يكن البيت الجديد للرسول قصرا فخما ولا صرحا مشيدا ، بل كان حجرات بسيطة مطلة على فناء المسجد النبوى ، بعضها من حجارة مرصوصة ، وبعضها من جريد يمسكه الطين ، وكانت جميعا مسقوفة بالجريد

أما ارتفاعها فيقول الحسن بن على ، حفيد الرسول : كنت أدخل بيوت النبى صلى الله عليه وسلم وانا غلام مراهق ، فأنال السقف بيدى

وفى البخارى : ان بابه عليــه الصلاة والسلام كان يقرع بالاظافر ، يعنى : لا حلق له !

اما الاثاث فأقصى ما عرفت المدينة يومئذ بساطةوخشونة وتواضعا : كان سريره صلى الله عليه وسلم ، خشبـــات مشدودة بالليف ، بيع زمن بنى أمية ، بأربعة آلاف درهم

أما البيوت ، فلما توفيت زوجات النبى ، جاء كتاب عبد الملك بن مروان الى واليه بالمدينة ، يأمره انتخلطالحجرات بالمسجد ، فضج أهل المدينة بالبكاء ، كيوم وفاته صــلى الله عليه وسلم

الى هذا المنزل الجديد المتواضع ، جاءت فاطمة بنت محمد مهاجرة من مكة ، لترى أباها صلى الله عليه وسلم فىاعز موضع ، ولتجد المهاجرينوقد اطمأن بهمالمقام، وآخى الرسول بين الانصار وبينهم ، ليذهب عنهم وحشـــــة الاغتراب ، ويشد أزر بعضهم بعض

وتمت المؤاخاة قبل قدوم « فاطمة » من البلد العتيق ، ولعلها لو كانت بيثرب يومها ، لما استغربت أن ترى أباها صلى الله عليه وسلم يقف فى اصحابه فيقول :

« تآخوا فى الله أخوين اخوين »

ثم يأخذ بيد على بن ابى طالب ويقول :

« هذا أخى »

ويختار لعمه حمزة زيد بن حارثة ، ولعمه جعفر ـ وكان ما يزال غائبا بارض الحبشة ـ معاذ بن جبل ، ولابى بكر

الصديق ، خارجة بن زهير الخزرجى ، ولعمر بن الخطاب ، عتبان بن مالك العوفى ، ولابى عبيدة بن الجراح ، سعيدبن معاذ ، ولعثمان بن عفان ، أوس بن ثابت اخا بنى النجار ، وللزبير بن العوام بن خويلد ، سلمة بن سلامة

وهكذا ذهب كل مهاجر بأخ ، وذهب على بن أبى طالب بسيد البشر اخا !

ولن يمضى وقت طويل ، حتى نرى عليا ، صهرا لاخيه النبى ، وزوجا لأحب بناته اليه

▭

كانت « فاطمة » اذ ذاك قد قاربت عامها الثامن عشر ، وما تزال منصرفة عن الزواج زاهدة فيه ، متأثرة بنفورها القديم منه ، يوم انتزعوا اختها الحبيبة«زينب»من بيت أبويها ، وزفوها الى دار أبى العاص بن الربيع ، وفاطمة طفلة فى عامها الرابع

ولقد مضت الاعوام ، ونمت الطفلة فأدركت مع الزمن حكمة الزواج ، واعدتها فطرتها لان تستجيب لهذا الوضع الطبيعى الذى بلته كل انثى قبلها ، من حواء ، الى خديجة وزينب ورقية وام كلثوم

وكانت الى ذلك كله ، تحس بابن العم ، على بن أبى طالب، قريبا منها فى المنزل الجديد ، وتلمحه يحوم حول أبيها الرسول وفى نفسه امر يكتمه لا يريد أن يفصح عنه ، وعلى لسانه كلمات يمسكها قبل أن تمس شفتيه ، على أن « فاطمة » لم تكن بالتى يخفى عليها سر ابن العم ، فمنذ بلغت سن الزواج وهى تحس بالهام فطرتها ووحى قلبها ،

أن « عليا » متعلق بها غير منصرف عنها ولا راغب فى سواها من بنات المسلمين

وكذلك هى : لم تشعر فى عالمها النفسى بمن هو اقرب اليها من «على» واعز موضعا ، وهو بعد اكثر من اخعزيز وابن عم قريب ، فليس بين فتية قريش من يفوقه شجاعة وذكاء وعزيمة ، ولا بين المسلمين جميعا من هو اسبق منه الى الاسلام او اقرب الى رسول الله

ولكنها مع ذلك اغلقت قلبها دونه كما اغلقته دون الرجال جميعا ، مؤثرة مكانها الى جانب ابيها الحبيب ، متشبثة بموضعها فى بيته الكريم ، فمنذ ماتت امها « السيدة خديجة » ـ رضى الله عنها ـ وهى ترى نفسها ربة هذا البيت التى تحمل عبء ادارته ، وخليفة الام الراحلة فى الوقوف الى جانب البطل المجاهد ، تهيىء له راحةومسكنا، وقد بلغت فى ذلك المجال ما جعلها تظفر بأجل كنية ، فتدعى « ام ابيها » !

وما كانت لتعدل بموضعها ذاك الاعز موضعا سواه !

لكن الى متى ؟

هذا مالم تفكر فيه فاطمة بنت محمد ، او لعلها فكرت فيه حينا ثم انصرفت عنه ، كيلا تفسد حاضرها بمايحتمل أن يأتى به الغد المجهول !

ב

حتى دخلت « عائشة بنت ابى بكر » فى حياة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ زوجة وربة بيت ، فأحست « الزهراء » أن قد آن لها أن تنتقل من بيت ابيها راضية

أو كارهة ، لكى تخلى المكان لربته الشابة الذكية الحسناء !

ولا ارتاب فى أن الزهراء رضى الله عنها قد ذكرت أمها الراحلة طويلا ليلة زفت « عائشة » الى محمد ، بعد الهجرة بأشهر معدودات ، واخذت مكان خديجة فى داره ودنياه ، ولعل الزهراء بكتها احر بكاء فى ليلتها تلك ، ثم هون عليها الامر ان يجد أبوها ـ الذى تؤثره على نفسها ـ فى عروسه الحلوة ما يؤنس وحشته بعد رحيل خديجة ، وما يسرى عن فؤاده بعض الشجن الذى أثقله زمنا طال حتى أوشك أن يبلغ خمسة اعوام

وزواج « أبى الزهراء » من عائشة لم يكن مفاجأة لابنته ولا لاحد من قومه ، فهو صلى الله عليه وسلم قد خطبها قبل هجرته من مكة ، يوم سعت اليه « خولة بنت حكيم » متلطفة مترفقة تقول :

« يا رسول الله ، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ! »

ثم ما زالت به حتى أذن لها أن تمضى فتخطب له سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر

وما كانت الزهراء لتكره ان يجد أبوها النبى من تسكن اليها نفسه ويرتاح لها فؤاده ، وانها لتعرف ما يحمل من أعباء الرسالة ومشاق الجهاد ، وما يكابده من محنة الغربة عن الوطن ، ومأساة الاضطهاد من قومه وعشيرته

وقد جاءت « سودة » قبل عائشة ، فشعرت فاطمة ـ كما لم يشعر سواها ـ ان الفراغ فى حياة النبى كزوج ، ما يزال كما كان قبل أن تجىء بنت زمعة ، فان الرسول لم

يتزوجها الا جبرا لخاطرها وعزاء لها عن زوجها « السكران ابن عمرو » الذى لم يكد يعود بها من مهجرهما فى الحبشة حتى مات وتركها أرملة مسنة ، قد هدت المحن حيلها ، وطحنتها السنون الطوال العجاف

ولم يغب عن فاطمة ، ولا غاب عن سودة ، أن حظ هذه الزوجة من الرسول بر ورحمة ، لا حب وتآلف وامتزاج ، فلا عجب أن بقيت الزهراء « أم أبيها » فى مكانها الاول ،دون أن تشعر بأن وجود «سودة» يغنى عنها

اما حين جاءت « عائشة » فالامر جد مختلف !

فلا عجب ان لم يمض على دخولها بيت زوجها النبى أربعة أشهر ، حتى كانت « الزهراء » فى طريقها الى بيت على بن أبى طالب (الاصابة ٨/١٥٧)

والواقع أن « عليا » كان يتلبث حتى تحين فرصةمواتية كهذه ، يستطيع فيها أن يطمع فى قبول الزهراء الانتقال من بيت أبيها الى بيت الزوجية

وطال انتظاره سنين عددا ، حتى اذا دخل الرسول بعائشة الحبيبة ، خامره الرجاء فى تحقيق رغبته ، لكنه ظل محجما فترة ، لا يدرى بم يمهرها وليس فى يده مال . ثم زاد احجامه ، حين بلغه أن أبا بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ قد طلبا يد الزهراء ، فردهما أبوها صلى الله عليه وسلم فى رفق بالغ

وعرف خاصة اصحاب «على»بما يهمه ، فشجعوه على خطبة الزهراء ، وذكروا له قرابته من أبيها ، ومكانته عنده

قال «على» منكرا يائسا :

« بعد أبى بكر وعمر ؟ »

أجابوه :

« ولم لا ؟ ووالله ما بين المسلمين ـ وفيهم أبو بكر وعمر ـ من له مثل قرابتك من رسول الله ، وقد كفله ابوك ، ورعته أمك فى بر نادر ، ثم نشأت فى كنفه وربيت فى بيته ، وكنت أسبق رجل الى الاسلام به »

وتشجع على ، وأخذ طريقه الى ابن عمه ، حتى اذا جاءه حياه بتحية الاسلام ، ثم جلس قريبا منه على استحياء ، لا يذكر حاجته

وأدرك صلى الله عليه وسلم أن أخاه وابن عمه وصاحبه، جاء لامر لا يقوى على الافصاح عنه ، فأقبل عليه يسأله فى تلطف :

ـ ماحاجة ابن أبى طالب ؟

أجاب بصوت خفيض ، وهو يغض من بصره :

ـ ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الرسول وما يزال على بشره وتلطفه :

ـ مرحبا واهلا !

ثم امسك لا يزيد ...

وطال صمتـه ، فانصرف « على » حائرا قلقا ، لا يدرى بم يجيب اهله وأصدقاءه الذين كانوا فى انتظاره ، يترقبون عودته برأى الرسول

فلما ألحوا عليه ، قال :

ـ ما أدرى والله شيئا : تحدثت الى رسول الله بالامر ،

فما زاد على قوله لى : مرحبا واهلا !

هتفوا جميعا :

ـ يكفيك من رسول الله احداهما !

ثم تركوه مستجد الامل ، حى الرجاء !

وأقبل فى غد فوقف غير بعيد من الرسول ، وقال بحيث يسمعه عليه الصلاة والسلام :

« اردت أن اخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته ، فقلت : والله مالى من شىء ، ثم ذكرت صلتهوعائدته فخطبتها اليه »

فما راعه الا أن التفت اليه أبو الزهراء وسأله مترفقا :

ـ وهل عندك شىء ؟

أجاب على :

ـ لا ، يا رسول الله

لـكن الرسول ذكر أن « عليا » أصاب درعا من مغانم بدر ، فعاد يسأله :

ـ فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟

أجاب وقد غلبه التأثر لما يلقى من بر النبى ورعايته :

ـ هى عندى يا رسول الله

قال عليه الصلاة والسلام :

ـ فأعطها اياها

فانطلق « على » مسرعا ، وجاء بالدرع ، فأمره النبى أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها

وتقـدم « عثمان بن عفان » فاشترى الدرع بأربعمائة

وسبعين درهما ، حملها « على » ووضعها أمام الرسول ، فتناولها بيده الكريمة ثم دفعها الى « بلال » ليشترى »ببعضها طيبا وعطرا ، ثم يدفع الباقى الى « أم سلمة » لتشترى جهاز العروس

ودعا الرسول صحابته فأشهدهم انه زوج ابنته فاطمة من على بن أبى طالب ، على أربعمائة مثقال من فضة ، على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، وختم خطبة الزواج بمباركة العروسين الهاشميين ، والدعاء لهما بالذرية الصالحة

ثم قدم الى الضيوف وعاء تمر

وعلى هذا النحو من البساطة ، تمت خطبة الزهراء بنت النبى للامام على ، وعقدت أخطر مصاهرة عرفها الاسلام فى تاريخه الحافل الطويل

وتم عقد النكاح فى شهر رجب من السنة الاولى للهجرة، فلما أهل المحرم من السنة الثانية ، كان « على » قد وفق الى استئجار منزل خاص يستقبل فيه عروسه الزهراء

واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج كما لم يحتفلوا بزواج مثله من قبل ، وجاء حمزة ـ عم محمد وعلى ـ بشارفين فنحرهما واطعم الناس بمدينة الرسول

فلما تم الحفل انصرف القوم مهنئين ، ودعا الرسول « أم سلمة » فطلب اليها ان تمضى بالعروس الى بيت على ، ولينتظراه هناك

واذن « بلال » لصلاة العشاء ، فصلى النبى بالمسلمين

فى المسجد ، ثم مشى الى دار على ، حيث دعا بماء فقرا عليه بعض آى الذكر الحكيم ، ثم امر العروسين أن يشربا منه ، وتوضأ بالباقى ونثره على راسيهما ، وهم بعد ذلك بالانصراف وهو يقول :

ـ اللهم بارك فيهمـــا ، وبارك عليهما ، وبارك لهما فى نسلهما !

فلم تملك فاطمة دمعها ، فتمهل الأب برهة ، وحنا عليها مهونا عليها الامر بأنه انما تركها وديعة عند اقوى الناس ايمانا واكثرهم علما وافضلهم اخلاقا واعلاهم نفسا ...

ثم انصرف وطيف من « خديجة » يطيف بالعروس فى ليلتها الاولى ، ويحوم حولها ، ويسرى عنها بعض ما تجد من وحشة لفراق الأب ، وشجن لغياب الأم

واستجاب الله لدعاء نبيه فى تلك المناسبة السعيدة ، فكانت الزوجية المباركة التى شاء الاله ان تنحصر فى ثمرها ذرية نبيه المصطفى

▭

كانت سن « الزهراء » عندما تزوجت ثمانية عشر عاما ، ولكن الهوى جمح بالمستشرق «لامانس» فخيل اليه انها كانت اسن من ذلك بكثير ، وانما عمد بعض كتاب السيرة الى تأخير ميلادها ، كيلا يقال انها ظلت مزهودا فيها مرغوبا عنها الى ان فاتت سن الشباب

ولعلنا لو سالناه : فلم لم يفعل كتاب السيرة مثل هذا مع خديجة وعائشة ؟ لم لم يجعلوا الاولى اصـــغر سنا ويضيفوا الى الاخرى عشر ســنين او عشرين ، ليلائموا

بينهما وبين زوجهما النبى فى السن ؟ أقول : لعلنا لو سألنا « لامانس » مثل هذا السؤال لما حار جوابا ..

ولامانس ـ فيما أرجح ـ قد اعتمد فى ذلك على خلاف يسير الشأن فى تاريخ مولد الزهراء ، فاستغله الى ابعد حد فى ارضاء حقده ، وبدلا من أن يزن الروايات المختلفة ويعرضها على مقاييس النقد والتقويم ، نراه يضع اصبعه على قول نقله « المسعودى » بولادة الزهراء قبل الهجرة بثمانية اعوام فحسب ، وآخر ذكره « اليعقوبى » بأنها ولدت بعد نزول الوحى . يضع لامانس اصبعه على هذا القول او ذاك ، ثم يصوب الطعنة المسمومة ، متجاهلا اقوال الكثرة من الثقاة الذين عليهم المعتمد فى هذا الشان ، كابن اســـحاق وابن هشام والطبرى ، وهم يكادون يجمعون على أن مولدها قد كان قبل البعثة بخمس سنين

والخلاف ـ كما قلت آنفا ـ يسير الشأن ، لاننا تعودنا ان نلقى مثله واكثر منه فى تاريخنا النقلى ، وبخاصة ذاك الذى يعتمد على المروى شفاها قبل عصر التدوين ؛ حيث لاتكاد تخلو ترجمة شخص من خلاف كهذا ، وبخاصة فى سنة مولده ، اذ المألوف الا تتجه العناية الى ترجمة شخص الا بعد ان ينمو وتظهر شخصيته ويبدو انه جدير بالعناية ، وكان للمستشرق ان يأخذ من هذه الظاهرة العامة ماشاء ، لا أن يتمسك بجزئية بعينها ، ثم يخصها بالتجريح والطعن وسيىء التأويل

وما أظن لامانس بالذى يغيب عنه الموقف المنهجى حين يختلف الرواة ، لكنه تجاهل عامدا « ابن اسحاق » وهو مرجعنا الاول فى السيرة لانه اقرب كتابها عهدا بالرسول وبناته ،

وابن اسحاق لم يذكر فى مولد « فاطمة » غير قول واحد اقتصر عليه ، وهو السنة الخامسة قبل البعثة ، ثم أيده بحكم عام هو ان بنات محمد ولدن جميعا قبل أن يبعث صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول اغفله لامانس كما اغفل من بعده اقوال الائمة من رجال الحديث والثقاةمن المؤرخين، ليتمسك برواية المسعودى ـ ثم اليعقوبى من بعده ـ حتى اذا استغلها ما شاء له التعصب والهوى ، واتكأ عليها فى الزعم بأن كتاب السيرة اخروا مولد فاطمة لكى ينفوا عنها تهمة البوار ، عاد فناقض نفسه وابطل الرواية المرجوحة التى اختارها ، بنقد طبيعى للمتن ، اذ يقضى القول بولادة فاطمة بعد البعثة ، ان تكون امها ولدتها وهى فى نحـــو الستين من عمرها !

الى ذلك الحد ، بلغ بمتعصبى المستشرقين التواء الأسلوب وانحراف المنهج واغتصاب الدليل ، وكانوا فى غنى عن هذا كله ، ليصلوا الى ما شاءوا من تقريره من تأخر زواج فاطمة، مستندين الى قول ابن اسحاق نفسه ، فسن الثامنة عشرة جد متأخرة اذا قيست بسن اخواتها الثلاث حين تزوجن ، وهى ابعد تأخرا اذا قيست بسن أم المؤمنين « عائشة » بنت أبى بكر ، لكن معاذ الحق أن يكون هذا التأخر عن زهد فيها ورغبة عنها ، فهى بنت الامين والطاهرة ، وهى اخت زينب ورقية وام كلثوم اللواتى تنافس شبان قريش على الزواج منهن ولما يزلن فى مستهل الصبا ، وكانت بعد هذا كله ، اقرب الناس شبها بأبيها فى الخلقة ، وهو من هو بهاء طلعة وجمال صورة ، وانما عرف القوم زهـد الزهراء فى الزواج ، وتشبثها بمكانها الى جانب ابيها الرسول ، وقدروا

موضعها من البيت المحمدى وحاجته اليها بعد وفاة أمها رضى الله عنها

ثم ، لم لا نقول ـ اذا لم يكف كل ما قدمنا ـ ان تأخر زواجها كان عن تهيب لها ؟ لقد بعث ابوها صلى الله عليه وسلم ، وهى وحدها التى لم تتزوج ، اذ كان عمرها خمس سنوات ، والناس بعد المبعث أحد رجلين : اما كافر بنبوة محمد وهيهات أن يفكر فى مصاهرته ، وقد علمنا ما كان من سعى قريش الى أصهار محمد فى رد بناته الثلاث اليه كى يشغلوه بهن ، واما مسلم يؤمن بنبوة محمد ويصدق برسالته ، وقد عرفنا موقف المسلمين من نبيهم والى اى مدى كانوا يجلونه ويعظمونه ويفتدونه بالمهج والارواح ، فغير مستغرب الا يروا انفسهم كفئا لمصاهرته ، وان يغضوا الطرف عن « أم أبيها ، الزهراء » اجلالا وتهيبا

ولا يرد على هذا بأن « عثمان » رأى فى نفسه كفئا لرقية ، فلقد قل فى أصحاب الرسول ـ بل فى قريش بعامة ـ مثل عثمان ثراء وشرفا وجاها ، وهو بعد قد طمع فى الزواج من بنت النبى ، بعد أن طلقها ابن ابى لهب كيدا وحقدا ، وليس الامر كذلك مع الزهراء

ونحن ـ حتى يومنا هذا ـ نرى بنات الاسر الكريمة يتأخر زواجهن فى انتظار الاكفاء وهم عادة القلة ، اذ القاعدة المضطردة هى انه كلما تميزت الفتاة لعلمها او ثرائها أو عزتها ، قل أكفاؤها

ولم يكن « علىّ » مع ذاك أول من طمع فى الزواج من « فاطمة » بعد تهيب وتردد ، فقد تسامى الى ذلك الشرف قبله ، صاحبا الرسول أبوبكر وعمر ، على ماروى «البلاذرى»

فى « انساب الاشراف » ، فردهما ابوها ردا كريما

ويابى لامنس بعد ذلك كله الا ان يعلل الزهد المزعوم فى « الزهراء » بأنها كانت محرومة من الجمال والذكاء والمرح (!!) ولست أطيل الوقوف عند هذا الزعم الاحمق ، بعد أن تهاوى كلام صاحبه وصار الى هباء

لم تكن حياة « الزهراء » فى بيت زوجها مترفة ولاناعمة ، بل كانت اقرب الى أن توصف بالخشونة والفقر ، وهى فى ذلك تختلف عن حياة اخواتها اللواتى اتيح لهن حظ غير قليل من الثراء المادى ، فقد تزوجت « زينب » من ابى العاص وهو معدود من اثرياء مكة ، وتزوجت رقية وأم كلثوم أولا من ابنى أبى لهب ذى المال الوافر ، ثم تزوجتا واحدة بعد الاخرى من « عثمان بن عفان » الواسع الغنى ، أما « على بن ابى طالب » فلم يك ذا حظ من مال مكتسب او موروث ، اذ كان أبوه على عظم مكانته وعلو شرفه ، قليل المال كثير العيال ، مما دفع ابن اخيه محمدا الى أن يقترح على عمه « العباس » التخفيف من أعباء أبى طالب ، بأن ياخذ كل منهما احد بنيه فيكفله عنه . وكان من نصيب « على » ان يختاره « محمد » دون بقية ابناء العم

وبعث « محمد » صلى الله عليه وسلم رسولا ، فكان « على » اول من آمن به صبيا ، اذ كان عمره عشر سنوات على مانقل ابن اسحق فى « السيرة ١/٦٢ » وهكذا اشترك «على» فى الحرب المقدسة بمجرد أن شب عن الطوق ، وشغل بالجهاد عن جمع المال ، وصرفته صحبة الرسول وهو يواجه

المشركين ، عما كان يرجى أن يشتغل به من التجارة التى هى حرفة الرجال من قريش ، وصنعة الاشراف فى مكة ، وسبيل الثراء بالوادى الاجرد غير ذى الزرع ، فلاعجب أن راينا يطلب يد « الزهراء » وليس فى يده مايمهرها به سوى درع أفاءها الله عليه من مغانم « بدر » التى أبلى فيها « على » خير البلاء ، حتى لقد احصى ابن اسحاق ، الذين انفرد « على » بقتلهم يومئذ أو شارك فيه ، بواحد وعشرين رجلا « السيرة ٢/٣٧٢ »

ولم يغب شىء من ذلك عن فاطمة حين عرض عليها أبوها صلى الله عليه وسلم طلب « على » يدها ، ولو صحت الرواية التى انفرد « البلاذرى » ـ فيما أعلم ـ بذكرها ، وهى ان الزهراء ذكرت فقر خطيبها ، فرد ابوها يزكيه :

« انه سيد فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين ، وانه أكثر الصحابة علما وافضلهم حلما واولهم اسلاما »

أقول لو صحت هذه الرواية ، لكانت مما يقال عادة فى مثل هذا الموقف ، لكن « لامنس » لم يدعها تمر دون أن يغمز ويلمز ، ليغض من شأن الامام كرم الله وجهه ، حتى اذا أحس أن الفقر لايمكن أن يعاب على الامام ، وقد نشأ النبى نفسه يتيما فقيرا ، راح يتخبط ليلتمس مغمزا آخر ، واخذ يبدى ويعيد عن ضآلة حظ « على » من جمال الصورة وحسن الشكل ! ولو راجع نفسه فسألها : كيف يستقيم مزعمه فى أن شخصية فاطمة رسمت باخرة ، وأضيفت اليها الوان زاهية من صنع التشيع ، وهذا الذى ينقله من روايات عن الامام على ؟ لاستوقفه هنا أن مؤرخى الاسلام لم يضيفوا الى امام الشيعة من الثراء والجمال مايرفع قدره

عند أمثال لامنس ، بل انهم ـ بشهادته ـ قد ذكروا انه كرم الله وجهه « كان فقيرا معدما قصيرا افطس الانف دقيق الذراعين » دون ان يجدوا فى ذلك مايغض من شأنه ، أو ينقص مقداره حين يوزن بموازين الرجال ويقدر بمقاييس الابطال !

▭

وترجع الى حيث تركنا « الزهراء » تستقبل فى عامها الثامن عشر حياتها الجديدة ، فلا نرى أحدا من رواة المسلمين حاول أن ينفى عنها ماكانت تجده من شظف العيش ، أو يجىء فى جهازها بسرير وثير واثاث جميل ، بل نقرأ أنها دخلت بيت زوجها بخميلة ، ووسادة حشوها ليف ، ورحاءين وسقاءين ، وشىء من العطر والطيب

وكان زوجها من الفقر بحيث لم يستطع يستأجر لها خادما تعينها أو تقوم عنها بالعمل الشاق ، فكان عليها ـ رضى الله عنها ـ ان تنفرد بهذا العبء الثقيل ، لكن « عليا » لم يكن يهون عليه أن يراها هكذا كادحة مجهدة ، فحاول أن يساعدها فى بعض أعمال البيت مامكنته ظروفه من ذلك ، اذ كان يخشى أن يستنفد العبء مابقى لها من قوة جسدية ، بعد الذى كابدته ـ منذ عامها الخامس ـ من محنة الحصار ومشقة الهجرة ومتاعب الجهاد

حتى ناء كلاهما بما يحمل ، فانتهز كرم الله وجهه فرصة مواتية ، وقال لها ذات يوم وقد عرف أن أباها النبى عاد من احدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا :

ـ لقد شقوت يافاط يت صدرى ، وقد جاء

الله بسببى ، فاذهبى فالتمسى واحدة تخدمك

أجابته وهى تنحى الرحى جانبا فى تعب وكلال : أفعل ان شاء الله

ثم لبثت ساعة حيث هى فى ساحة الدار ريثما استردت بعض قواها الذاهبة ، وقامت فتلفعت بخمارها وخرجت تسعى الى بيت أبيها بخطوات بطيئة وانية ، فلما رآها صلى الله عليه وسلم هش لها وسأل :

ـ ماجاء بك يابنية ؟

أجابت :

ـ جئت لاسلم عليك !...

ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله

ثم عادت من حيث أتت ، لتنبىء زوجها انها استحت أن تطلب من أبيها شيئا

فقام كرم الله وجهه وصحبها الى الرسول ، وتولى عنها السؤال وهى مطرقة من استحياء

أجاب صلى الله عليه وسلم :

ـ لا والله ، لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لااجد ماانفق عليهم ، ولكن أبيع ، وانفق عليهم بالثمن

فانصرفا شاكرين ، وما يدريان أن شكواهما مست قلب الاب الحنون ، وشغلته نهاره كله !

وجن الليل وكان البرد قارسا ثقيل الوطأة ، فرقدا على فراشهما الخشن يحاولان النوم فلا يجدان اليه سبيلا لفرط مايشعران به من قسوة البرد ، فاذا بالباب يفتح ، « ويقبل عليهما الرسول وقد انكمشا فى غطائهما مقرورين ، اذا غطيا راسيهما بدت اقدامهما ، واذا غطيا اقدامهما

انكشفت رءوسهما » . فهبا للقاء الضيف الكريم ، لكنه صلى الله عليه وسلم ابتدرهما قائلا :

ـ مكانكما !...

ثم اضاف فى رفق وهو يقدر حالهما :

ـ الا اخبركما بخير مما سألتمانى ؟

أجابا معا :

ـ بلى يارسول الله

قال :

ـ كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان الله فى دبر كل صلاة عشرا ، وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، واذا أويتما الى فراشكما ، تسبحان ثلاثا وثلاثين ، وتحمدان ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين

ثم ودعهما ومضى ، بعد أن زودهما بهذا المدد الالهى ، ولقنهما هذه الرياضة النفسية التى تغلب المصاعب وتهزم المتاعب

ولقد سمع « الامام على » بعد اكثر من ثلث قرن يذكر كلمات الرسول ويقول :

« فوالله ماتركتهن منذ علمنيهن ! »

سأله رجل من أصحابه :

« ولا ليلة صفين ؟ »

فأجاب مؤكدا :

« ولا ليلة صفين ! »

▭

وتابى سنة الله التى فطر الناس عليها ، الا تؤثر هـذه

الحياة الشاقة الكادحة على صحة « الزهراء » ومزاجها ، وقد كان وجودها رضى الله عنها منذ طفولتها فى صميم المعركة ، يميل بها عن المرح والابتهاج ، ثم أحزنها موت أمها أشد الحزن ، وزادها وحشة وشجنا ، وكانت الى جانب ذلك كله مشغولة البال بأبيها النبى ، تفكر فيه على البعد والقرب ، وتتبعه قلبها فى غزواته ومعاركه ، وقد تأذن لها الظروف بمصاحبته الى ميدان القتال ، كما حدث فى موقعة « أحد » اذ رؤيت هنالك تضمد الجراح وتأسو الكلوم وتسقى المحتضرين من الشهداء

وليست هذه الظروف مجتمعة ، مما يعين على بهجة وانشراح ، ولعل الزهراء حاولت أن تتأسى بغيرها من نساء البيت النبوى ، وهى ترى مثلا ، أم المؤمنين عائشة ، تضفى على بيت زوجها اشراقا وتبث فيه حيوية وانسا ، وتلقى البطل اذ يعود الى سكنه ، بابتسامتها الوضاءة ودعابتها اللطيفة ومرحها الحلو

وربما حاولت الزهراء كذلك ، أن تنحى عن بيتها الخاص ظلال الكآبة التى كانت تغشاه لفرط نزوعها الى ذكرى أمها ، ومزيد قلقها على أبيها وزوجها ، وعمق تأثرها بما لقيت ولقى اهلها والمسلمون من محن واضطهاد ، لكنما أعوزها ـ لكى تنجح فى محاولتها هذه ـ أن تجد الى جانبها زوجا لطيفا وديعا هينا لينا مرنا ، و « على » كرم الله وجهه لم يكن من هذا الصنف من الازواج ، بل كانت فيه شدة أقرب الى ان تكون صرامة ، وخشونة توشك أن تشتبه بالغلظة ، وحزما يكاد يكون صلابة ، واذا كانت رضى الله عنها فى حاجة الى يد حانية رقيقة ، تأسو جرحها وتنسيها مالقيت فى مستهل

صباها من متاعب وصدمات ، وتلطف أشجانها لفراق بيتها الاول الحبيب ، فقد كان « على » كرم الله وجهه لايقل عنها حاجة الى هذه اليد اللطيفة الرحيمة التى تنفض عنه غبار المعارك التى خاضها منذ كان صبيا

فليس يروعنا اذن ، ماتحدث به الرواة من خلاف كان يقع أحيانا بين الزوجين ، وقد يبلغ أحياناسمع الاب الرسول فيهتم له ويحاول جهده أن يغريهما بمزيد من الاحتمال

حدثوا أنه صلى الله عليه وسلم ، رؤى ذات مساء وهو يسعى الى دار ابنته فاطمة ، بادى الهم والقلق ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشرا ، فقال قائل من الصحابة : يارسول الله ، دخلت وانت على حال وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك !

فأجاب عليه الصلاة والسلام :

ـ وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين الى ؟

وحدث مرة أن ضاقت « الزهراء » بما تجد من شدة زوجها وصلابته ، فقالت له :

« والله لاشكونك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وخرجت ، و « على » فى اثرها ، حتى جاءت اباها فشكت اليه ما انكرت من زوجها ، فتلطف الاب النبيل فى ترضيتها وحملها على الرفق بعلى واحتماله

قال كرم الله وجهه وهو يصحب زوجته الى بيتهما :

ـ والله لا آتى شيئا تكرهينه ابدا !

لكنه كاد يأتى ـ غير متعمد ـ شيئا تكرهه فاطمة أشد الكره ، وتألم منه أفدح الالم

وأى شيء أبغض الى زوجة كالزهراء ، من أن يأتيها زوجها وابن عمها بضرة !؟

لقد هم « على » بالزواج على فاطمة ، وفى حسبانه أنه انما يجرى على مألوف عادة قومه فى الجمع بين زوجتين واكثر ، ويفعل ما أباحه له الاسلام من تعدد الزوجات ، دون أن يخطر بباله أن فى هذا ماتنكره بنت نبى الاسلام !

لكن الامر جرى على غير ماقدر « على » ...

فما كاد يهم بالزواج من بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى ، حتى راعه أن يرى أبا الزهراء يقبل على المسجد مغضبا ، ويخطب فى الناس منكرا على « ابن أبى طالب » أن يتزوج على فاطمة ، بنت عمرو هذا

لكن كيف والاسلام يبيح تعدد الزوجات ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان يجمع فى بيته يومئذ بين زوجات ثلاث أو أربع ، فيهن عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب الذى أعز الله به الاسلام ؟

كيف يحرم النبى ما أحله الله ، وينكر على ابن عمه مالم ينكره على نفسه ؟

ليكن هذا الزواج مؤذيا لفاطمة ، أفلم تتعرض لمثله بنتا أبى بكر وعمر ؟

وهل يأبى النبى أن يجوز على ابنته مايجوز على كل مسلمة ، وهو القائل فى المرأة السارقة : « لو كانت بنت محمد فاطمة ، لقطعت يدها » ؟

وهل استثنى الاسلام من تعدد الزوجات ، بنات نبيه الذى بلغ رسالته ؟

ياله من موقف بالغ الدقة والصعوبة والحرج !

فالنبى يعلم حق « على » فى الزواج ولو على فاطمة بنت محمد

ومحمد ، فى أبوته الرحيمة وبشريته السوية ، يؤذيه أن تروع أحب بناته بضرة ، ويشفق عليها من تجربة قاسية كهذه ، يعلم أنها لاقبل لها باحتمالها

الا ليت « عليا » قد صبر على واحدة ، أسوة بابن عمه حين اكتفى بخديجة زوجة ، مدى ربع قرن من الزمان ! اذن لاعفى الاب النبى من الحرج ، واغناه عن ذلك الموقف الشائك المريب

وانى لاتمثله صلى الله عليه وسلم ، يرنو الى بنته الغالية وهى تترقب المحنة فى خوف وقهر ، فتكاد لفرط أساها ولوعتها تذوب من ضعف وكمد ، ويود بكل ما استطاع ان يدفع عنها ماتكره ، وأن يحميها من الخوف الذى يقرح اجفانها ويروع أمنها ، ويؤرق لياليها ، لكن الامر يبدو معقدا ، فما كان لنبى أن يخون رسالته ، فيحرم ما احل الله !

وفى ظلمات الحيرة ، يلوح شعاع من الضوء ينير السبيل : أن عليا ذكر بنت « عمرو بن هشام المخزومى » ، فهل يرضى الله أن يجمع بيت « على » بين بنت رسول الله ، وبنت عدوه ؟

فعمرو هذا ، هو ابو الحكم بن هشام ، او هو ابو جهل الذى لم ينس الرسول والمؤمنون ما اقترف من آثام فى اضطهاد الدعوة الاسلامية

هو عدو الله الذى قال لقريش : « يامعشر قريش ، ان محمدا قد ابى الا ماترون من عيب آلهتنا وشتم آبائنا وتسفيه احلامنا ، وانى أعاهد الله لاجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله ، فاذا سجد فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك او امنعونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم »

وهو هو القائل مستهزئا بالرسول :

« يامعشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عددا ، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم ؟ »

فنزلت فيه الآية :

« وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وماجعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا »

ثم هو هو القائل لمن سأله رايه فيما سمعه من محمد :

« ماذا سمعت ؟ تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف : اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ؛ حتى اذا كنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ؟ فمتى ندرك هذه ؟ والله لانؤمن به أبدا ولا نصدقه ! »

وهو هو الذى كان اذا سمع برجل أسلم ، من ذوى الشرف والمنعة ، أتبه وأخزاه ، وقال : « تركت دين أبيك وهو خير منك ؟ لنسفهن حلمك ، ولنقبحن رأيك ، ولنضعن شرفك » . وان كان الذى أسلم تاجرا ، قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك . وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به

وهو هو ، الذى لقى حكيم بن حزام بن خويلد ، يحمل طعاما يريد به عمته خديجة فى محنة الحصار ، فتعلق اللعين به وقال : أتذهب بالطعام الى بنى هاشم ؟ والله لاتبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة . وأبى أن يطلقه حتى اشتبكا ونال احدهما من صاحبه

وفيه نزل قوله تعالى :

« ان شجرة الزقوم طعام الاثيم ، كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ! »

وهو هو الذى اعترض وفدا من النصارى جاءوا مكة يستطلعون لقومهم أمر محمد حين بلغهم خبره من الحبشة ، فما جلسوا اليه واستمعوا له حتى آمنوا به . فلقيهم اثر انصرافهم أبو جهل فقال لهم : « خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه !! مانعلم ركبا أحمق منكم ! » السيرة ٢/٣٢

وهو هو الذى رأى لقريش قبيل الهجرة ، أن تختار كل قبيلة منها فتى شابا جليدا نسيبا ، ثم يعطى سيفا صارما ، فيعمدوا جميعا الى محمد ويضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فيتفرق دمه فى القبائل جميعا « السيرة ٢/١٢٦ »

فلما هاجر الرسول ، غدا القوم وفيهم ابو جهل ، فوقفوا بباب أبى بكر ، فخرجت اليهم أسماء فقالوا لها :

« اين ابوك يابنت أبى بكر ؟ » أجابت :

ـ لا ادرى والله اين أبى

فرفع « ابو جهل » يده ـ وكان فاحشا خبيثا ـ ولطم خدها لطمة طرحت قرطها « السيرة ٢/١٣٢ »

وحين تهيأ الفريقان للقتال فى بدر ، بعث جيش قريش من يأتيها بنبأ العدو ، فرجع اليها محذرا ، ومشى حكيم بن حزام بن خويلد الى عتبة بن ربيعة يرجوه أن يرجع بالناس ، فكاد عتبة يستجيب له ، وسأل « حكيما » ان يذهب الى أبى الحكم ، فما يخشى « عتبة » المخالفة من سواه ، فلما سمع أبو جهل بهذا ، ابى الا القتال !

وقتل كافرا ملعونا ، وجىء برأسه الى « محمد » فحمد الله !

اتكون ابنة هذا الرجل ، ضرة لفاطمة بنت النبى ؟
يأبى الرسول ذلك ! ويأباه الاسلام !

وانطلق صلى الله عليه وسلم الى المسجد مغضبا حتى بلغ المنبر فخطب فى صحبه قائلا :

« ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم على بن ابى طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، اللهم الا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فان ابنتى بضعة منى يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها ، وانى أتخوف أن تفتن فى دينها »

ثم ذكر صلى الله عليه وسلم صهره ابا العاص ـ وهو من بنى عبد شمس ، لامن بنى عبد المطلب كعلى ـ فأثنى عليه فى مصاهرته اياه أحسن الثناء وقال :

« حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فأوفى لى ، وانى لست أحرم حلالا ولا أحل حراما ، ولكن والله لايجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله بيت واحد أبدا »

ولقد ورد هذا الحديث فى الصحيحين : « البخارى ٢٩/٥٣٨ ، ومسلم ٤٤/٩٣ » ولكن احدا من الرواة لم يذكر لنا وقعه على المسلمين وصداه فى المدينة

فهل ترى يعيينا أن نتصور مدينة الرسول وقد باتت ليلتها ساهرة ، تؤمن على قول النبى ، وترى فيه مظهرا جميلا من مظاهر بشريته التى طالما اصر على الاعتراف بها ، وآية ناطقة بأبوته الرحيمة التى كانت مضرب الامثال ، ودليلا جديدا من أدلة حبه لبناته ، هذا الحب الذى شاء الله أن يملأ به قلب النبى المختار ، فى بيئة وادت بناتها ؟!

أو هل يقصر خيالنا عن متابعة « على » وهو ينصرف من

المسجد أثر سماعه خطبة صهره النبى ، ويأخذ طريقه الى بيته بطىء الخطو ، مثقل القلب يفكر فيما كان !؟

أتراه حقا قد أراد الزواج على فاطمة ، من بنت عدو الاسلام ؟

كيف هان عليه جهاده الطويل الباسل فى سبيل الدعوة المحمدية ؟ بل كيف هان عليه ان يروع أمن الحبيبة بنت الحبيب ، ويكسر قلبها بزواج كهذا لايمكن أن يؤول الا بالرغبة فى متاع حسى مادى ، لايجده لديها ؟

لقد كان لزواج « محمد » من كل واحدة من نسائه مبرراته الخاصة ، وظروفه الملجئة ، والا فما باله صلى الله عليه وسلم ، قد اكتفى بخديجة خمسا وعشرين سنة ، فلم يتزوج عليها حتى ماتت ، وقد بلغ الخمسين من عمره ، وحين كانت الاحداث الكبار تشغل باله ، والجهاد فى سبيل الدين الجديد يملأ وقته ؟

الا فلتكن بنت أبى جهل من حظ غيره ، اما هو ، فليس بالذى يحبط جهاده الباسل ، فيستبدل بالنبى ، أبا جهل بن هشام صهرا ! وليس هو بالذى يؤذى نبيه وأباه وابن عمه ، فى أحب بناته اليه ، وان يكون أبو العاص العبشمى ، قبل اسلامه ، أبر منه ببنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ولا أرعى فى مصاهرته للنبى ذماما !

▭

وينتهى به المسرى الى البيت ، حيث يجد « الزهراء » فى وحدتها تجتر أحزانها وتسامر همومها ، فيدنو منها حتى يأخذ مكانه الى جانبها صامتا لايدرى ماذا يقول

واذ رآها تبكى ، همس معتذرا :

ـ هبينى اخطأت فى حقك يافاطمة ، فمثلك أهل للعفو والمغفرة ..

ومضت قطعة من الليل قبل أن تجيب :

ـ غفر الله لك يا ابن العم

فلثم أطراف أناملها ، ثم راح يروى لها ما كان من حديث المسجد ، ويصف لها مشاعره حين سمع ابن عمه يتحدث عن ضيقه بالاذى يلحق ابنته فاطمة ، وانكاره ان يتزوج على من بنت أبى جهل مع الزهراء ، وقسمه الا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله بيت واحد ابدا !

واغرورقت مقلتا « فاطمة » بالدموع تأثرا بحب ابيها ، وانفعالا بموقفه ، ثم قامت للصلاة !

وبقى سؤال ذو بال :

متى هم « على » بالزواج على الزهراء بنت النبى ؟

صمت المؤرخون ورجال الحديث فلم يشيروا الى موعد الخطبة ، على ما لذلك من أهمية وخطر ، لكنا نطمئن الى انها كانت فى الفترة الاولى من زواجهما ، وهو اطمئنان لايسنده دليل نقلى ، وانما يغرينا به فهمنا لطبيعة الموقف ، وتقديرنا أنه اقرب احتمالا ، حين كانت فاطمة وعلى فى مستهل حياتهما الزوجية ، لم تألف بعد شدته وصرامته ، ولم يرض هو نفسه على احتمال ماكانت لاتزال تجد من حزن لفقد أمها ، وشجو لفراق بيتها الاول !

وبهذا الاطمئنان ، نميل الى تحديد الحادثة على وجه التقريب ، فى العام الثانى من الهجرة ، قبل أن يأتيهما العام الثالث بأولى الثمرات المباركة للزواج

انقشعت السحابة التى ظللت أفق « الزهراء » حينا لانحدد مداه ، وعاد البيت اصفى جوا مما كان قبل أن يمتحن بتلك التجربة القاسية ، ومضت الحياة تسير باالزوجين الكريمين على مايرجوان من تعاون ومودة : فاطمة فى الدار تقوم على خدمة زوجها ماوسعها الجهد ، وتتخلص شيئا فشيئا مما كان يعتادها من شجن وانقباض ، وعلى الى جانبها يبذل لها من الحدب والرعاية مايعينها على مشقة العيش الكادح فى جو « المدينة » الذى لم تسعفها صحتها على أن تألفه بسرعة كما ألفه كثير من المهاجرين ، ويحاول قدر ما اطاق ، أن يترفق بها ويروض نفسه على شىء من اللين واليسر

ثم شاء الله أن يقر عين الزهراء وعيون من يحبونها ، فوضعت بكرها « الحسن بن على » فى السنة الثالثة من الهجرة ، وسعى البشير الى أبيها النبى بالنبأ السعيد ، فخف اليها مشوقا فرحا ، وحمل وليدها بين ذراعيه ، وتلا الاذان فى مسمعه ، وذوقه لعابه الطهور ، ثم اقبل عليه يتأمله فى غبطة وحنان وهو يذكر ولديه اللذين استردهما الله صغيرين قبل سن الفطام !

واحتفلت مدينة الرسول بمولد « الحسن » وتصدق جده صلى الله عليه وسلم على الفقراء من أهلها بزنة شعره فضة . ثم راح يرقب تفتح الحياة فى هذه الفلذة الغالية منه ، فما بلغ الوليد من العمر عاما وبعض عام ، حتى اردفته امه الزهراء بشقيقه « الحسين » فى شهر شعبان ، سنة اربع من الهجرة

وتفتح قلب النبى لهذين الحفيدين الغاليين يملآن حضن ام ابيها « الزهراء » ، ورأى فيهما امتدادا لحياتهالخاصةعلى

هذه الارض ، ومتنفسا لما يفيض به قلبه الكبير من عاطفة الابوة التى يئست من الولد منذ ماتت خديجة رضى الله عنها

كانت سن الرسول اذ ذاك ـ فى العام الرابع الهجرى ـ سبعة وخمسين عاما ، وقد مضى على وفاة خديجة مايقرب من سبع عشرة سنة ، تزوج خلالها من خمس نساء : سودة بنت زمعة الكهلة الارملة ، وعائشة بنت ابى بكر الصبية العذراء ، وحفصة بنت عمر الشابة الناضجة ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، وأم سلمة ، هند بنت ابى أمية المخزومى زاد الركب ، وقد دخل بها فى شوال من السنة الرابعة للهجرة ، كما نقل الطبرى « ٤٢/٣ » وكان لها من زوجها الاول ، عبد الله بن عبد الاسد بن المغيرة ، ابن عمة الرسول برة بنت عبد المطلب : سلمة ، وعمر ، ودرة ، وزينب .

ومع ذلك ، لم يرزق النبى بولد من احدى هاتيك الزوجات الخمس ، وبدا أن قد انقطع خلف محمد بن عبد الله ، الا ان يكون عن طريق ابنته « الزهراء »

فلا عجب أن اقبل الرسول على سبطيه « الحسن والحسين » يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان ، ويفيض عليهما من عاطفة الابوة ماشاء له الحرمان من الولد ، على كثرة من تزوج من النساء

بل لاعجب أن دعاهما ابنيه ، فعن أنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم « كان يقول لفاطمة رضى الله عنها : ادعى لى ابنى . فاذا ما جاءا اليه شمهما وضمهما »

ونقل الترمذى فى (سننه) عن « اسامة بن زيد » انه قال : « طرقت باب النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الحاجة ، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شىء لاادرى ماهو ،

فلما فرغت من حاجتي قلت : ماهذا الذى أنت مشتمل عليه يارسول الله ؟

« فكشفه ، فاذا الحسن والحسين ، وقال : هذان ابنای وابنا ابنتي ، اللهم اني أحبهما فأحبهما ، واحب من يحبهما »

وكان اسماهما ــ رضي الله عنهما ــ نغمة حلوة فى فم ابى الزهراء ، يستعذبها ولا يمل من ترديدها ، وفيهما كان يجد انسه وسلوته عمن فقد من الابناء !

لقد آثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى ، فحصر فى ولدها ذرية نبيه المصطفى ، وحفظ بها اشرف سلالة عرفتها العرب منذ كانت

كما كرم الله وجه « على » ، فجعل فى صلبه نسل خاتم الانبياء ، فكان له من هذا الشرف مجد الدهر وعزة الابد

ولعل محمدا صلى الله عليه وسلم لو خير أي بناته تكون وعاء لنسله الطهور ، واى اصهاره يكون ابا لاهل البيت الشريف ، لاختار ما اختاره له الله !

فعلى اقرب اصهاره اليه مكانا وامسهم رحما ، فى عروقه يجري الدم الهاشمي الاصيل ، وعند عبد المطلب يلتقى نسبه بنسب الرسول ، فكلاهما له حفيد !

وقد كان لمحمد عند أبى طالب منزلة الابن : كفله منذ بلغ الثامنة من عمره ، حتى اذا شب واستقل بحياته بعد زواجه من السيدة خديجة ، ضم اليه عليا ابن العم ابى طالب ، وانزله من بيته وفى قلبه منزلة الولد

وليس لابى العاص بن الربيع ، ولا لعثمان بن عفان ، مثل هذه الآصرة من الرحم ولا تلك المكانة من القربى ، وان كان

لكل منهما موضعه الذى لايسامى فى قريش ، ومكانه الذى لايجحد فى الاسلام

وكان «على» يعرف منزلته عند صهره النبى ويعتز بها الى حد جعله يسأل الرسول ذات مرة وقد غمره فيض عطفه :

ـ أيهما أحب الى رسول الله : ابنته الزهـــراء ، أم زوجها على

فأجاب الرسول فى ابتسامة لبقة :

ـ فاطمة أحب الى منك ، وأنت أعز على منها !

وليس بمستغرب بعد هذا ، ان يعى الزمن من آيات حب الرسول للزهراء وعلى وبنيهما ، مانستطيع معه أن نتمثله صلى الله عليه وسلم وهو يرنو الى بيت صهره « على » كلما مر به ، وقلبه الكريم يخفق حبا وحنوا ، فاذا وجد من وقته سعة ، عرج على دار الاحبة ، فأسعد أهلها بعطفه ، وأسبغ على حفيديه فيضا من حنانه الغامر !

وحدث فى احدى المرات ان ألفى ابنته وزوجها وقـــد غلبهما النعاس ، والحسن يبكى ويطلب طعاما ، فلم يهن على الاب النبيل أن يوقظ العزيزين النائمين ، بل أسرع الى غنمة كانت تقف فى ساحة الدار ، فحلبها وسقى «الحسن» من لبنها حتى ارتوى !

ومر بالبيت يوما وهو متعجل ، فبلغ مسمعه صوت بكاء الحسين ، فدخل يقول لابنته معاتبا :

ـ أو ماعلمت أن بكاءه يؤذينى ؟

ولا أصف هنا ما كان لهذا الحب الابوى من أثر بعيد عميق فى اسعاد « فاطمة » التى ارهقها الحزن صغيرة ، وانهكها العبء شابة ، بل لاأصف هنا مدى مابعث فى حياتها

الزوجية التى عرفنا خشونتها وقسوتها ماديا ، من بهجة وانس واشراق . فلقد اسعد « فاطمة » أن تكون أما لهذين الولدين الاثيرين عند ابيها صلى الله عليه وسلم ، وارضاها أن تستطيع بفضل الله ، أن تهيىء لابيها الحبيب ـ بعد أن انتقلت من بيته ـ هذه المتعة الغامرة التى يجدها فى حفيديه الغاليين

ولم يكن على ـ كرم الله وجهه ـ أقل منها سعادة وغبطة ، فلقد سره ، بل ازدهاه ، ان تتصل به حياة ابن عمه النبى هذا الاتصال الوثيق ، فيمتزج دمه بدم النبى الزكى ، لتخرج من صلبه ذرية سيد العرب ، وبنو ابنته الزهراء ، ويذهب دون الناس جميعا بمجد الابوة لسلالة النبى ، وآل بيته الأكرمين

▭

وتتابع الثمر المبارك : ولدت الزهراء طفلتها الاولى فى العام الخامس من الهجرة ، فسماها جدها « زينب » تحية لذكرى خالتها الراحلة التى لم ينسها أبوها ، ولانسيتها اختها « فاطمة » قط !

ثم وضعت الزهراء بعد عامين من مولد « زينب » ، طفلة ثانية اختار لها الرسول اسم ابنته « أم كلثوم » ، كأنما كان يحس أنه ثاكلها بعد عامين اثنين !

وبذلك قدر للزهراء أن تحيى بابنتيها ذكرى اختيها زينب وأم كلثوم بنتى النبى ، كما شاء لها الله أن يكون منها ولدا الرسول « الحسن والحسين » حين عز الولد

وحفظ الله تعالى لنبيه هذا القدر من سعادة الأبوة ، فلم يفجعه فى الزهراء ولا فى احد من بنيها حتى لحق ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرفيق الاعلى

لقد مات ولداه « القاسم وعبدالله » صغيرين ، ثم رزقه الله على الكبر غلامه الثالث «ابراهيم» فى ذى الحجة من السنة الثامنة بعد الهجرة ، فقرت به عينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لكن الفرحة به لم تتم ؛ اذ ما لبث الهلال أن غرب ، وثكل النبى ولده الثالث قبل أن يستكمل عامه الثانى ، وأبوه اذذاك قد جاوز الثانية والستين من عمره !

وكذلك ماتت بناته الثلاث : زينب ورقية وأم كلثوم ، وهن فى ربيع العمر ، وأرقدهن أبوهن الثاكل المحزون ، واحدة بعد الاخرى ، فى ثرى يثرب الذى ضم جثمان أبيه عبدالله ولما يزل محمد جنينا فى رحم أمه « آمنة بنت وهب »

وعاشت له فاطمة ، كما عاش بنوها يملئون دنيا الرسول بهجة وأنسا ، ويرضون فيه عاطفة الأبوة التى آدها ثكل البنين والبنات ، ولم يبق لها الا هذه الابنة الحبيبة ، تعوض أباها عمن فقد ، وتعزيه عمن غاب ..

عاشت « الزهراء » ليظل محمد ما عاش يجد من يدعوه : « يا أبت ! »

وعاش ولداها ليظل النبى الانسان يسعد بترديد اللفظ العذب « ابنى »

وعاشت بنتاها زينب وأم كلثوم ليظل الأب الحنون يدعو باسم ابنتيه الراحلتين ، بعد أن أقام زمنا يفتقدهما ويمسك لسانه عن ندائهما !

ووقف التاريخ الانسانى يرقب مبهورا هذا النبى الانسان ، فى أبوته الفياضة بأنقى الحب وأصفى الحنان ، وأصغت الانسانية فى فخر واعتزاز ، الى ما تواترت به الانباء من

حديث ذلك الحب الكبير ، الذى يكشف عن جانب من عظمة الرجل المصطفى من السماء !

وما تزال حتى اليوم ، وحتى غد ، والى الأبد ، تتلو هذا الحديث ، وترى فيه آية من آيات الله الذى سوى ذلك البطل ، بشرا رسولا !

وهيهات لها ان تنسى مشهد النبى وهو يمشى فى أسواق المدينة حاملا أحد حفيديه على كتفه ، حتى اذا بلغ المسجد وقام للصلاة ، وضعه الى جانبه فى رفق وأقبل يؤم القوم ، فتأخذهم الحيرة والعجب اذ يطيل السجود على غير المألوف من عادته ، فلما قضيت الصلاة قيل له :

ـ يا رسول الله انك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا انه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك .

فقال :

ـ كل ذلك لم يكن ، ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته !

أو تنسى مرآه وقد وقف يوما يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين ، عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل النبى صلى الله عليه وسلم من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال يخاطب القوم :

ـ صدق الله : انما اموالكم واولادكم فتنة ! نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما !

او تغيب عنها صورته ، وهو آخذ بكتفى الحسين ، وقدماه على قدمه صلى الله عليه وسلم ، يرقصه قائلا : « ترق ، ترق » فما يزال الصبى يرقى حتى يضع قدميه

على صدر جده ، فيقول له : افتح فاك ! فيفتحه ، ويقبله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « اللهم أحبه ، فانى أحبه ! »

أو يفوتها موقفه ، وقد خرج يوما فى نفر من صحابته الى طعام دعوا اليه ، فاذا بالحسين فى السكة يلعب مع غلمان من أترابه ، فتقدم الرسول أمام القوم وبسط يديه محاولا أن يمسك بحفيده ، والغلام يفر هاهنا وهاهنا ، فما زال ـ عليه الصلاة والسلام ـ يضاحكه حتى أخذه ، فوضع احدى يديه تحت قفاه ، والاخرى تحت ذقنه ، ثم قبله وقال :

« حسين منى وأنا من حسين . احب اللهم من أحب حسينا ! »

والناس من حوله خاشعون اجلالا ، يقول قائلهم : أراه صلى الله عليه وسلم يصنع هذا بحفيده ، فوالله ان لى ولدا وما قبلته قط !

فيرد النبى الانسان ، وقد أنكر هذه الفلظة الجافية : « من لا يرحم ، لا يرحم ! »

▭

ويرخى الزمن للزهراء ، لتشهد اباها البطل وهو يغزو الجزيرة بالنور الجديد ويدنو من النصر المؤزر الذى وعده الله به والمسلمين ، وتمسى رضى الله عنها ذات ليلة ، وهى تتأهب للسفر الى مكة ، وقد ذاد الكرى عن عينيها قرب الأوبة الى الوطن الذى غابت عنه ثمانية أعوام ، فراحت تسامر زوجها الفارس وتستعيد واياه ذكريات صباهما الحلو الذى مضى وراح :

أترى مكة لا تزال على العهد بها كما تركاها منذ سنين ، أم غيرها كر الغداة ومر العشى ، ومحت يد الحدثان من معالمها ما كان لهما بالامس مهدا ومرتعا ؟

ودار الأهل ، حيث مولد « فاطمة » ، أتراها باقية كما كانت ، أم عدا عليها العدو فنقضها وصيرها طللا دارسا وخرابا بلقعا ؟

والكعبة الغراء ، أما يزال الحمام الابيض الجميل يرتع فى حماها آمنا ملء الحرية والطلاقة والحياة ، أم روعته الوثنية الغاشمة الضالة فانكمش هنالك مكتئبا محزونا مهيض الجناح ؟

وملاعب الصبا ، أما تزال تذكر من رحل عنها من الأحباب ، أم نسيتهم على مر الايام وتطاول السنين ، فعادت لا تعرف منهم اليوم أحدا ولا ترد لسائل جوابا ؟

ومثوى خديجة ، وقبر أبى طالب ، وقبور غيرهما من الأهل والعشيرة ، أما تزال محتفظة برودائعها الغالية ، أم نبشها الطغاة الكفرة وبعثروا ما بها من رفاة الأعزة الراحلين ؟

□

واذ هما فى غشية من شجوهما يطرق الباب ، فينهض على — كرم الله وجهه — ليرى من الطارق بليل ، وتفتح « الزهراء » عينيها وما يزال فيهما بقية من خدر الذكرى ، فاذا أمامهما « أبو سفيان بن حرب » حامل لواء المشركين ، وزوج آكلة الأكباد التى صنعت ما صنعت بشهداء أحد ، ثم راحت تفرى قومها بنبش قبر « آمنة أم محمد » اشتفاء وحقدا

ويتكلم « أبو سفيان » فيذكر مجيئه الى المدينة لما بلغ قريشا تأهب « محمد » للمسير الى مكة ، فرأى من قوة الاسلام وضخامة استعداد الجيش المعبأ للزحف على مكة ، ما روعه . فدخل على ابنته « رملة ، أم حبيبة ، زوجة الرسول » فما كاد يهم بالجلوس على الفراش حتى طوته عنه كراهة أن يجلس عليه وهو مشرك ، فانصرف محزونا حتى أتى النبى فكلمه فلم يرد عليه شيئا ، فذهب الى أبى بكر ، ثم الى عمر ، يسأله أن يكلم له الرسول ، فأبى عمر قائلا : أنا أشفع لكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجد الا الدر لجاهدتكم به !

وصمت « أبو سفيان » ريثما استرد أنفاسه ثم قال لابن ابى طالب :

ـ يا على ، انك أمس القوم بى رحما ، وانى قد جئت فى حاجة فلا ارجعن كما جئت خائبا ، فاشفع لى الى رسول الله

فقال على :

ـ ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه

فالتفت « ابو سفيان » الى الزهراء ، وكانت حتى تلك اللحظة صامتة لم تتكلم ، فقال لها وهو يشير الى غلامها «الحسن» الذى استيقظ من نومه ، وراح يدب بين يدى أمه :

ـ يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟

أجابت فى هدوء :

ـ والله ما بلغ بنى ذاك ان يجير بين الناس ، وما يجير

أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقام « أبو سفيان » لينصرف خائبا محسورا ، ثم تلبث لدى الباب برهة وقال فى انكسار :

ـ يا أبا الحسن ، انى أرى الامور قد اشـــتدت على فانصحنى

قال على :

« والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك »

قال :

« أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ »

فصمت « على » يفكر لحظة ثم أجاب :

ـ لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك

فانصرف « ابو سفيان » وقد استقر عزمه على أن يعمل بما أشار « على » ، وأغلق الزوجان بابهما وجلسا يتحدثان فى عجائب القدر وتصاريف الايام ، حتى مضى شطر من الليل فناما يحلمـان بالأوبة المنتظـرة الى ام القرى : مقر الكعبة ، ومهد الصبا ، ومنزل قريش !

□

وسار النبى الى مكة فى عشرة آلاف من المسلمين ، ميمما شطر البلد الحرام الذى تسلل منه منذ ثمانية أعوام ولا أحد معه الا صاحبه وحموه الصديق

وخرجت « الزهراء » فيمن خرج من آل الرسـول ، لتشهد العودة الظافرة والنصر المبين

ولم يفتها أن تلمح خلال النقع المثار ، تلك البقعة التى

كادت تلقى فيها حتفها وهى فى طريقها الى دار الهجرة ، مع اختها « أم كلثوم » ..

وهاجت شجونها للذكرى : أين أم كلثوم ، وأين رقية ، وأين زينب ؟ لقد هاجرن جميعا من مكة ، لكن الى غير رجعة أو مآب ..

وهذه هى ، تعود وحدها ، وتخلفت شقيقاتها الثلاث ، ثاويات فى ثرى المدينة !

غير أن أطيافهن بقيت معها ، وهى تقترب من أم القرى ، فما انفكت فى غمرة من شجوها وأساها حتى بلغ الركب «مر الظهران » حيث عسكر النبى بجيشه ترقبا للمعركة الفاصلة

غير ان النهار لم يكد يولى ، حتى اقبل « ابو- سفيان بن حرب ، قائد لواء المشركين » فبات ليلته بباب النبى انتظارا لأمره صلى الله عليه وسلم فى أهل مكة ، فلما تنفس الصبح دخل على محمد فأسلم ، ثم انطلق عائدا الى مكة فوقف بحيث يسمع وقال :

« يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار ابى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »

فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد الحرام ، ووقف الرسول على راحلته بذى طوى ، بين كبار الصحابة ، ثانيا رأسه تواضعا لله على ما أكرمه ، حتى لتكاد الشعرات التى بين شفته وذقنه تمس الرحل

ونظم دخول جيشه الى البلد العتيق ، فقسمه فرقا على

راس كل منها احد كبار الصحابة ، وكانت الراية مع سعد ابن عبادة فقال الرسول لعلى :

ـ ادركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها !

ودخـل الرسول من « اذاخر » حتى نزل بأعلى مكة ، وضربت له قبة هناك ، قريبا من مثوى « خديجة »

وصحبتـه اليها ابنته « الزهراء » وقد أنساها الفرح الأكبر كل ما ألم بها من شجن ، منذ مرت بالمـكان الذى نخس فيه « الحويرث » راحلتها وهى مهاجرة من مكة ، فألقت بها على الارض

لكن أباها لم ينس !

وهذا هو يعهد الى أمرائه من المسلمين الا يقاتلوا الا من قاتلهم ، واستثنى نفرا سماهم بأسمائهم ، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة

وكان من هؤلاء الحويرث بن منقذ ، وقد تولى قتله زوج الزهراء

وسجد الرسول لله شاكرا

وكادت الجبال تتصدع من خشية ورهبة ، وهى تصغى الى هتاف عشرة آلاف من المسلمين :

الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا اله الا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا اله الا الله والله اكبر ...

▭

ثم أوى البطل الظافر الى قبته ، حيث كانت «الزهراء» تنتظره هناك

حدثت أم هانىء بنت أبى طالب ـ وكانت زوجة ابيرة ابن أبى وهب المخزومى ـ قالت :

« لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة ، فر الى رجلان من بنى مخزوم ـ قال ابن هشام : هما الحارث ابن هشام ، وزهير بن أمية بن المغيرة ، السيرة ٤/٥٥ ـ فدخل على أخى على بن أبى طالب ورآهما فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتى ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثمانى ركعات من الضحى ، ثم انصرف الى فقال : مرحبا وأهلا يا أم هانىء ، ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر على ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد أجرنا من أجرت ، وأمنا من أمنت ، فلا يقتلهما » . السيرة ٤/٥٥

واستراح الرسول برهة ريثما اطمأن الناس اثر موجة الفتح الدافقة ، فخرج حتى جاء البيت الحرام وسط الجموع الزاخرة . فطاف به سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه أمر ففتحت له الكعبة ثم وقف على بابها فخطب فى الناس خطبة الفتح ، ثم قال :

« يا معشر قريش ، ما ترون انى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »

واقبل المساء رقيقا نديا بعد نهار حار ، حافل بالحركة والضجيج ، فضمت « أم القرى » جناحيها على أبنائها المهاجرين العائدين ، وعلى من نزل معهم من الانصار وبقية

المسلمين ، وسهرت السماء ترعى ذلك الحشد الضخم الذى لم تشهد قط مثله حول قائد نبى ، وطافت الملائكة بحزب الله تبارك انتصاره على حزب الشيطان

وهناك كانت « فاطمة » غير بعيدة من أبيها البطل ، ترقد ساهرة فى فراشها ، يقظى لا تنام

كم شاقها فى ذلك الليل الساجى أن تتمثل امها خديجة وهى تطل من علاها على حبيبها النبى فى يومه الأغر الميمون ؟ !

وكم شجاها ان تتمثل شقيقاتها الثلاث الراقدات بيثرب ، تسرى أرواحهن الى البلد العتيق الذى لم يكتب لهن رجعة اليه ، فتطيف بمن بقى من الأهل والأحباب وتشاركهم فرحة النصر المؤزر ؟ !

وكم رق قلبها لذكرى طفولتها الباكرة فى البيت السعيد ، حيث الشمل ملتئم والحياة حب وصفو !

وكم استهواها أن تبيت هكذا ساهرة يقظى ، حتى تسمع صوت « بلال » يؤذن لصلاة الصبح من فوق الحرم الأقدس ، فيخشع الكون لجلال الدعاء ، ويخف المؤمنون من مضاجعهم ساعين الى المسجد الحرام ، ليؤدوا للمرة الاولى فى تاريخ الاسلام ، فريضة الصبح فى البيت العتيق المطهر من الأوثان !

وقال « على » وهو يتهيأ للخروج الى صلاة الصبح :

ـ أما نمت يا أم الحسن ؟

أجابت وقد غلبها التأثر :

ـ بل اردت أن أستمتع بعودتنا الظافرة وانا كاملة اليقظة ، وكأنى أشفق اذا نمت ، أن يكون الامر كله حلما فى الكرى

ثم قامت تصلى ، وأغفت قليلا بعد أن طال بها السهر

□

وأصبحت تمنى نفسها بالعودة الى دار مولدها ، ومرتع صباها وصبا « على » ربيب النبى ، ولكن هذه الدار كانت قد انتقلت على اثر الهجرة الى ملك « عقيل بن ابى طالب » ولم يشأ الرسول ان يستردها منه

وتساءلت الزهراء : ترى اى دار يختار ابى لتكون لنا فى مكة منزلا ؟

وكذلك تساءل الانصار ، وقد ظنوا أن الرسول مقيم بمكة ، لما رأوا من ابتهاجه صلى الله عليه وسلم باسلام قريش ، وحرصه على تألفهم ، وغبطته بالرجوع الى مكة بعد طول اغتراب

وقال قائلهم :

« لقد لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ! »

وانشد شاعرهم « حسان بن ثابت الانصارى » يعاتب الرسول على ايثاره قريشا وقبائل العرب بالعطاء والفىء دون الأنصار :

وأت الرسول فقل : يا خير مؤتمن
للمؤمنين اذا ما عدد البشر
علام تدعى « سليم » وهى نازحة
قدام قوم همو آووا وهم نصروا ؟
سماهم الله أنصارا بنصرهم
دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا
للنائبات وما ضاقوا وما ضجروا
والناس الب علينا فيك ، ليس لنا
الا السيوف وأطراف القنا وزر

فما ونينا ، وما خمنا ، وما خبروا
منا عثارا وكل الناس قد عثروا !

وبلغ الصوت مسمع « فاطمة » كما بلغ مسمع كل من فى مكة ، فقدرت أن لهذا العتاب ما بعده ، واشفقت من الموقف الصعب ، وان اطمأنت الى أن اباها صلى الله عليه وسلم سوف يجد منه مخرجا

لكن اى مخرج ؟

لم تدر « فاطمة » على التحديد ، حتى سمعت اباها يسأل « سعد بن عبادة » وقد شكا له ما تجد الأنصار :

ـ فأين انت من ذلك يا سعد ؟

أجاب الرجل :

ـ يا رسول الله ، ما انا الا من قومى

فلم تبد على النبى العربى بادرة ضيق أو ضجر ، بل عطف على صاحبه وطلب اليه ان يجمع له قومه الأنصار ، فلما فعل « سعد » ، خرج اليهم الرسول فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها على فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فاغناكم الله ، واعداء فألف بين قلوبكم ؟ »

اجابوا :

« بلى ، الله ورسوله امن وافضل »

قال :

« ألا تجيبوننى يا معشر الانصار ؟ »

قالوا مشفقين :

« بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل»

فما راعهم الا ان قال النبى الكريم :

« اما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم : اتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ! أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم ، فى لعاعة ـ بقلة خضراء ناعمة ـ من الدنيا تألفت بهـا قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ؟ ألا ترضـون يا معشر الأنصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمـد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرا من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت شعبا لسلكت شعب الانصار ! اللهم ارحم الانصار وابناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ! »

فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم ، وهتفوا بملء ايمانهم : رضينا برسول الله قسما وحظا !

وكذلك بكى أهل مكة ، وقد راوا الرسول يوشك أن ينصرف راجعا الى دار الهجرة التى اختارها منزلا ومقاما

وراحت « الزهراء » تودع دار الصـبا ، وتزور قبر « خديجة » قبل أن يحين الرحيل !

ولم يجاوز مقامها بمكة غير شهرين وبعض شهر : جاءتها فى شهر رمضان من العام الثامن للهجرة ، وغادرتهـا مع أبيها الى مدينة الانصار ، فى أخريات ذى الحجة من العام نفسه

لكأنما كان الامر كله كما قالت فاطمة فى الليلة الاولى بعد الفتح ، حلما فى الكرى أو رؤيا منام

وقد امتد الحلم الهنىء عامين ، سعدت فيهما « الزهراء » بصحبة ابيها تستجلى طلعته البهية فى الغدو والآصال ، وتنعم بحبه المضاعف لها ولبنيها وزوجها ، ما شاء الله لها

أن تنعم . وقد أتيح لهـا فى تلك الفترة أن تسترد بعض ما ذهبت به الصدمات الاولى من قواها ، فتتوفر على تربية بنيها ـ احفاد الرسول وأحبابه ـ تاركة شئون الدار لخادم جاء بهـا « على » بعـد أن أيسر بما ناله من غنائم الفتح والنصر !

ثم كانت اليقظة المروعة !

شكا ابو الزهراء صلى الله عليه وسلم من مرض الم به فى ليال بقين من شهر صفر فى السنة العاشرة ؛ فحسب آل البيت والمسلمون أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول ، دون أن يجرؤ احد على الظن بأنه مرض الموت !

غير ان « الزهراء » وحدها لم تكد تسمع بشكوى أبيها النبى حتى أجفلت وكأنما لسعتها نار !

ذلك انها ذكرت حديثا أسر به صلى الله عليه وسلم اليها منذ أيام ، وكانت قد جاءت لزيارته وهو عند ام المؤمنين عائشة ، فلما رآها أبوها مقبلة ، اشبه احد به سمتا وهديا على ما وصفت عائشة ، هش للقائها قائلا : «مرحبا بابنتى»

ثم قبلها واجلسها الى يمينه وأسر اليها أنه يحسب أن قد حان أجله ، فلما بكت هون عليها بقوله :

« وانك اول أهل بيتى لحوقا بى » ثم أضاف : « الا ترضين ان تكونى سيدة نساء هذه الأمة ؟ »

فسرها ما سمعت ، وضحكت بعد بكاء ، فعجبت عائشة وقالت : « ما رأيت كاليوم فرحا اقرب الى حزن ! » ثم سألت الزهراء حين سنحت فرصة ، عما أسر به الرسول اليها . فأجابت ام ابيها :

« ما كنت لأفشى على رسول الله سره ! »

وانصرفت يومئـــذ الى دارها ، وقد رد اليهـــا بعض طمأنينتها أن رأت أباها صلى الله عليه وسلم صحيحا معافى

فلما بلغها بعـــد أيام أنه يشكو ، ساورها قلق مشوب بالخوف ، وأسرعت الى بيت أبيها وهى تحس أن قلبها قد سقط من موضعه فى صدرها

ورأته يتحامل على نفسه ، ويتجمل بالصبر ، ويدور على نسائه أمهات المؤمنين كمألوف عادته ، حتى اذا بلغ بيت « أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية » تتام به وجعه فدعا زوجاته اليه واستأذنهن فى أن يمرض فى بيت عائشة

وأقامت « الزهراء » الى جانبه تخدمه وتسهر عليـــه حانية متجلدة ، تتكلف الصبر ، ولا تكف عن الدعاء والابتهال

لكن تجلدها خانها حين رأته وقد اشتد به الوجع ، يأخذ الماء بيده ويجعله على رأسه وهو يقول : وأكرباه !

فخنقتها العبرة وقالت بصوت يفيض حزنا ولوعة :

« وا كربى لكربك يا أبتاه ! »

فرد عليها هو يرنو اليها فى عطف وحنو : « لا كرب على أبيك بعد اليوم ! »

ثم حم القضاء ، ولحق محمـــد بالرفيق الأعلى ، وترك الزهراء من بعده يتيمة حزينة ، لا تجد الى العزاء سبيلا !

واذهلها المصاب الفادح ، فما أفاقت من غشيتها الا وقد تمت البيعة « لأبى بكر الصديق » فى السقيفة ، ولما يكد يمضى على وفاة الرسول غير ثمان وأربعين ساعة فحسب !

وجمعت كيانهـــا المزق ، وتحـــاملت تسعى الى قبر

الحبيب وما تقوى قدماها على حملها ، حتى اذا بلغته أخذت قبضـــة من تراب القبر فأدنتها من عينيها اللتين قرحهما البكاء ، ثم راحت تشمها وهى تقول متفجعة :

ماذا على من شم تربة احمـــد
ألا يشم مدى الزمان غواليـــا ؟
صبت على مصـــائب لو أنهـــا
صبت على الايام عدن لياليـــا :

واستعبرت باكية ، فبكى الناس لبكائها ، وتقطعت نياط قلوبهم وهم يرونها تفلت التراب من بين انامليهـــا فى حركة يائسة ، ثم تحدق فى يديها الفارغتين ، وتمضى ، كمن فرغت من الدنيا !

واتبعوها عيونهم الدامعة وقلوبهم المتصدعة ، حتى اذا بلغت دارها استأذن عليهـــا « انس بن مالك : خادم أبيهـــا النبى » وراح يسألها الصبر الجميل

قالت له معاتبة :

ـ كيف مكنك قلبك ان تسلم للارض جثة رسول الله ؟

فشهق بدمعه دون ان يجرؤ هو أو سواه على ان يعاود الحديث معها فى الصبر والعزاء !

الصبر والعزاء ؟ كيف وكل مصاب بعد مصابها لم ! ؟

▭

ودخل على اثره زوجها « على » كرم الله وجهـــه ، وفى صحبته رجال من بنى هاشم ، فتحدثوا على مسمع منها بالذى كان من امر البيعة

أهناك من هو أحق بالخلافة من على ربيب النبى ، وابن عمه ابى طالب وزوج ابنته الزهراء ، وأبى الحسنين ريحانتى

الرسول ، وأول الناس اسلاما ، وأطولهم فى الجهاد باعا ، وفتى قريش شجاعة وعلما ؟

وأمسكت « الزهراء » صامتة لا تعقب ، ومضت أيام وهى فى عزلة عن الناس ، لا تنشط للنضال عن ميراثها الذى اباه عليها أبو بكر ، وهل أبقى الحزن لها من قوة تسعفها على نضال ؟

وكانت بحيث تظل منطوية على جراحها وحزنها ، لو لم يدعها الواجب أن تؤدى حق زوجها وولديها عليها ، فتسعى فى رد الامر الى أهل بيت الرسول

وحملها « على » فوق دابة ، وخرج بها ليلا فطافت بمجالس الأنصار مجلسا مجلسا ، تسألهم أن يؤيدوا أبا الحسن فيما يطلب من حق جحد

أجابوا جميعا :

« يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لأبى بكر ، ولو أن زوجك وابن عمك سبق الينا لما عدلنا به أحدا »

فكان الامام يقول :

« أفكنت أدع رسول الله فى بيته ولم أدفنه ، وأخرج أنازع فى سلطانه ؟ »

وتردف فاطمة :

« ما صنع ابو الحسن الا ما ينبغى ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم »

ورجعت الى بيتها فلزمته ، فما راعها حين أصبحت الا ضجة قد علت قريبا من الباب ، وتناهى اليها صوت « عمر »

يحاول ان يدخل . وهو يقسم منذرا ؛ أن سوف يحمل «عليا» على البيعة اتقاء الفتنة وخوفا من تفرق كلمة المسلمين وانتشار قواهم . فصاحت الزهراء بملء لوعتها :

« يا أبت رسول الله ، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبى قحافة ؟ »

فضج الناس بالبكاء ، ومضى « عمر » محزونا مغلوبا على امره ، فأتى « أبا بكر » وسأله أن ينطلق معه الى « الزهراء » لعلهما يحاولان استرضاءها

واستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، حتى جاء « على » وأدخلهما فسلما ، لكنها أشاحت بوجهها عنهما واستدارت الى الحائط معرضة مغضبة

واستطاع « ابو بكر » رضى الله عنه أن يجد صوته ويقول :

ـ يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله احب الى من قرابتى ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات ابوك أنى مت ولا أبقى بعده ، أفترانى اعرفك ، وأعرف فضلك وشرفك ، وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ، الا انى سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ، ما تركنا صدقة ؟

فقالت فاطمة :

« أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفانه وتعملان به ؟ »

أجابا بصوت واحد : نعم

قالت : نشدتكما الله ؛ ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن احب

فاطمة ابنتي فقد أحبني ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني ؟

أجابا : بلى ، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم

قالت : فاني أشهد الله وملائكتـه أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ، ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما اليه

فارتاعا لما سمعا ، وخرج ابو بكر الى النـاس والدمع ينساب من مقلتيه ، فسألهم ان يقيلوه من بيعتهم ، لكنهم أبوا حتى لا تكون فتنة !

▭

ولا يذكر المؤرخون ـ فيما قرأت ـ أن الزهراء قد حاولت بعد ذلك أن تسترجع ما فات ، وانما الذى وعاه التاريخ أنها أسلمت نفسها للحزن ، فلم تر قط منذ مات أبوها صلى الله عليه وسلم ، الا محزونة باكية

وعز العزاء ، وغلب الصبر ولم يبق لها من رجاء الا ان تلحق بأبيها كما بشرها قبل الرحيل

وما أسرع ما لحقت به !

أصبحت يوم الاثنين ، الثانى من رمضان سنة احدى عشرة ، فعانقت بنيها وملأت عينيها منهم ، ثم دعت اليها « أم رافع مولاة أبيها عليه الصلاة والسلام » فقالت لهـا بصوت واهن خفيض :

ـ يا أمه ، اسكبى لى غسلا

واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم لبست ثيابا لها جددا كانت قد نبذتها حدادا ، ثم قالت لأم رافع :

« اجعلى فراشى فى وسط البيت »

فلما فعلت ، اضطجعت عليه واستقبلت القبلة ، تتهيأ للقاء ربها ، ولقاء أبيها الحبيب

ثم أغمضت عينيها ونامت !

وقام « على » فاحتملها باكيا ، ودفنها بالبقيع ، ثم ودعها وعاد محزونا الى صفاره ، والى البيت الذى اوحش من بعد « الزهراء »

وبات المسلمون محزونين ، بعد ان شيعوا الى القبر آخر بنات النبى ، ولما تمض ستة أشهر على وفاته

وعاد الشمل الممزق فالتأم من جديد ولكن فى غير هذا العالم ، فضم ثرى يثرب جثمان فاطمة كما ضم جثمان أبيها صلى الله عليه وسلم واخواتها الثلاث : زينب ورقية وام كلثوم رضوان الله عليهن

وطوى القدر الصفحة الاولى من حياة الزهراء ، ثم ما لبث ان عاد بعد حين الى الكتاب التاريخى الحافل ، ليملأه بنضال الشيعة ، ومأساة كربلاء ، ومصارع الطالبيين ، وخدعة الدعوة العباسية ، وقيام الدولة الفاطمية ، وما حف بذلك كله من جليل الأحداث ، وما تخلف عن ذلك كله من بعيد الآثار فى حياة العقيدة الاسلامية ، وفى التاريخ المذهبى والسياسى للمسلمين !